ناجي علوش

الثوري العربي المعاصر

دار الطليعة - بيروت

الشعر العربي المعاصر

ناجي علوش

اليسار العربي المعاصر

١

تطور الفكر القومي منذ بدء النهضة حتى نهاية الحرب الكبرى

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

الطبعة الاولى
بيروت ، تشرين الثاني ١٩٦٠

مقدمة

* هذا الكتاب محاولة في دراسة الفكر القومي منذ بدء النهضة العربية حتى الآن . اي منذ سنة ١٨٥٠ تقريباً حتى سنة ١٩٦٠ .

* اتجه الكتاب لدراسة تطور الفكر الاجتماعي والسياسي دون التطورات السياسية والاجتماعية ، وان كانت الدراسة تبدأ من فهم هذه التطورات وفهم أثرها في الفكر عامة .

لقد أرخ كثيرون للتطورات السياسية والاجتماعية بينما ظل تطور الفكر الاجتماعي والسياسي بدون تاريخ ؛ ذلك ان كل ما قرأناه لا يتعدى ان يكون إما عجالات عابرة أو دراسات تتناول جانباً واحداً من الموضوع .

* لأن الكتاب جزء من دراسة طويلة تتناول الفكر الثوري في الوطن العربي منذ بدء النهضة العربية الحديثة

حتى الآن فقد أسميته « الثوري العربي المعاصر » وستكون الدراسة في ثلاثة اجزاء هذا هو الاول منها .

• سأدرس المرحلة نفسها من تاريخ المغرب العربي في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

• الموضوع ليس محدوداً ولذلك فقد كنت أجد جديداً كلما زرت مكتبة ، فأكتب باباً او أضيف حاشية حتى استقر الكتاب على ما هو عليه الآن . وكل ما أرجو هو ان تكون هذه المحاولة قد نجحت في تحديد ملامح « الفكر الاجتماعي والسياسي » في الفترة المؤرخ لها .

المؤلف

١٣-١٠-١٩٦٠

١

الباب الاول

الثورة في أوروبا خلال القرن التاسع عشر

عند ميلاد القرن التاسع عشر كانت على الارض ثورة لا يزيد امتدادها الزماني منذ ساعة انطلاقها عن أحد عشر عاماً بينما كان امتدادها المكاني من حيث التحقق لا يتعدى أرض ميلادها .

هذه الثورة هي الثورة الفرنسية التي بدأت شعبيةدموية ولكنها انتهت الى يد نابليون الاول بعد حوالي أحد عشر عاماً من ميلادها .

ابتدأت تنادي بحق الجميع في التحرر ، حق كل مواطن وكلّ أمة ، وانتهت بالغزو ، بالاعتداء على الجميع حتى الذين كانوا يرون فيها خلاصاً من عبودية

الاقطاع والاستعمار والاستثمار .

وبمقدار ما كانت دموية في محاربة الاقطاع والتحكم والسيطرة مدة السنين الخمس الاولى ، كانت دموية في توكيدها للاغتصاب فيما بعد .

وفي خلال الخمسة عشر عاماً الاولى من القرن التاسع عشر كان يسيطر على اوروبا جو من التوتر والفزع والاستعداد الدائم للقاء « نابليون » في ميادين القتال وهذا ما كان يستلزم الاعداد القومي والتهيؤ .

وعندما هزم نابليون وعادت الملكية الى فرنسا، أخذت الثورة تنمو وتتحقق في مجالات كثيرة ولا سيما بعد مؤتمر فيينا الذي فرض على الشعوب وصايات وحدوداً مناقضة لما أشيع قبل الحرب وخلالها من انها حرب تحرير ، ومنافية بشدة لروح التفتح القومي الذي بثته الثورةالفرنسية وأيقظته حروبها والذي كان غليانه في هذا الوقت بالذات يعنف ويشتد .

« وهكذا أصبحت اوروبة معبأة بالبخار الذي يعثر من حين لآخر على منفذ له » كما يقول نهرو ، فنراصطدامات العمال بالسلطة في بريطانية الى الثورات التحريرية في المانيا وايطاليا واليونان والبلقان وغيرها .

ولقد كان من نتيجة ذلك تحالف القوى الرجعية باسم « المعاهدة المقدسة » التي يعتبر هدفها الاول والأوحد المحافظة على الاوضاع القائمة بما يعنيه ذلك من بطش

وتحكم وارهاب الحركات الثورية .

وعلى الرغم من هذا فقـد استمرت هذه الثورات القومية .

وفي هذا الوقت كانت الثورة الصناعية تقفز بالمجتمع ووسائله بسرعة فائقة ، فتغير العلاقات الاجتماعية ، وتدفع بجماهير هائلة من الذين تركوا الارياف الى اتون المعامل المخيف ليرزحوا تحت سيطرة جديدة أبشع من سيطـرة الاقطاع . وما كان عام ١٨٤٨ حتى خرج البيان الشيوعي رد فعل شديد لهذه الانتكاسات القومية يقوم على اساس التصور الطبقي للمشكلة الانسانية ، التصور الذي ينطلق من خلال هذه الانتكاسات نقمة وحقداً على القومية كوجود ، وعلى الفكرة القومية كتصوّر كلي للثورة والنضال .

وعندما كانت المانيا تناضل في سبيل وحدتها ، وايطالية تكافح من اجل لم أشتاتها ، كان رواد الماركسية يعملون على جمع العمال لابراز خطوط الصراع الطبقي وتعميقه ، وما الدولية الاولى التي ولدت عام ١٨٦٤ الا نتيجة هذه المساعي في سبيل سيطرة طبقة والقضاء على طبقة .

وهكذا سار النضال القومي على غموض أسسه وتفاصيله في جهة ، بينما سار الصراع الطبقي مسلحاً بالنظرية الماركسية في جهة أخرى منافية مغايرة .

وما كانت سنة ١٨٧٠ حتى انتصرت أكثر الحركات القومية وتحققت وحدة ألمانيا وايطاليا ولكن عـلى اشلاء

فرنسا وفي قصر « فرساي » في باريس .

ومضت المعارك في الداخل والخارج ، نزاعاً بين الفرد والسلطة وبين الدولة والدولة . ذلك ان الثورات القومية لم تحقق اكثر من الاستقلال وبعض الاصلاحات . وعلى الرغم من ان انتصار هذه الثورات سحق رأس الاقطاع الا ان هذه الثورات ـ لأنها لم تكن قائمة على اساس منهاج قومي اجتماعي واضح ، ينظم فعاليات القوى المنتجة في المجتمع ، ويوزعها توزيعاً عادلاً سلماً بالقضاء على الاستغلال والاستثمار والاستعباد ـ وقفت كحركات شعبية في الوقت الذي كانت قوة الآلة تنمو فيه باستمرار .

وامتد هذا الوضع يرافقه الازدياد المضطرد في الانتاج والازدياد المضطرد في الاستعباد والاستثمار الذي كان طبيعة عصر شاعت فيه فلسفة « الحرية » ، حرية القول ، والعمل والاستغلال ..!

ولقد عرف هذا العصر تميزات نوجزها بما يلي :

أ ـ النضال القومي من أجل الاستقلال والوحدة ، إذ ان أوروبا كانت تنزع بعد مؤتمر فينا سنة (١٨١٥) الى التمرد على الحدود المصطنعة التي اتفقت عليها الدول الكبرى . فنتج عن ذلك أن قامت ثورات عديدة في ايطاليا وألمانيا وبولندة واليونان الخ .. مما أدى الى ارتفاع في مستوى الوعي .

ب ـ النضال من اجل الاصلاح السياسي والاجتماعي

والاقتصادي الذي ارتبط بارتفـــاع في مستوى الوعي الحزبي والنقابي، ونتج عنه الحصول على الضمانات الصحية والتأمين ضد العجز والمرض ، وتحديد ساعات العمـــل وتوسيع المشاركة الانتخابية .

جـ — إلغاء الرق على الصعيد العالمي ، وكان النضال من أجل الغائه قد بدأ في بريطانيا منذ فجر هذا القرن .

د — الصراع الاستعماري من أجل مناطق النفوذ والأزمات الحادة التي نتجت عنه ، وتدفق الرساميل الاجنبية عـــلى البلاد المتأخرة .

هـ — قيام الحركات القومية والاشتراكية واعلان البيان الشيوعي وتأسيس الاممية الاولى والثانية .

و — تقدم البحوث العلمية والصناعات تقدماً لم يسبق له مثيل .

ز — الغاء الاقطاع في اكثر بلدان اوروبـــة وتحول العمل الحرفي الى مصانع ، وزيادة نفوذ رأس المال على الصعيد القومي والعالمي .

الباب الثاني

عوامل الثورة في البلاد العربية

عندما بدأت المعارك الثورية في اوروبة من أجل التحرر والتقدم والوحدة كانت أنفاس جديدة وحارة تتحرك في عروق الشرق وتبعث فيه الشوق للحياة . وبانتهاء عهد المماليك في البلاد العربية في منتصف العقد الثاني من القرن التاسع عشر كانت هذه الانفاس تتمثل في حركات سياسية وفكرية ودينية متشابكة تدفع عن صدر العربي وطأة كابوس العهود المظلمة .

ولقد كانت هذه اليقظة تتأثر بما يلي :

اولاً : مدى ما وصلت اليه الحالة الامبراطورية العثمانية من استعباد وفوضى واستبداد . الشيء الذي اتاح لأمراء

العرب وشيوخهم نوعاً من الاستقلال، كما اتاح للمغامرين من الباحثين عن الجاه والسلطان استغلال الفوضى والفساد والاستقلال بولاياتهم عن الدولة . وتاريخ السلطنة العثمانية حافل بالصراع بين أمراء العرب والولاة من جهة ، وبين الولاة والدولة من جهة ثانية . ان الظاهرة التي تميز بها تاريخ الشام (كما تميز بها تاريخ الاقطار العربية الأخرى) هي استقلال كثير من الأسر والامراء في المناطق التي يتمتعون فيها بالنفوذ فنجد آل الجبار في السلمية — وهم شيوخ العرب ما بين الرقة وحلب — وآل الحرفوش — وهم رافضة — في بعلبك ، وآل معن في لبنان ثم خلفهم آل شهاب وفي طرابلس آل حماده والامير الحارثي بن طرباس في جبل عجلون وابن فروخ في نابلس ، والامير أحمد بن رضوان في غزة . ولهذا كان الحكم العثماني لم يكن يتجاوز المدن الكبيرة وأما في الداخل فالنافذ هو حكم الأمراء ومشايخ العرب [1] .

وفي الوقت الذي كانت فيه قبائل المنتفق والخزاعل وعبيد تعمل لاقامة حكومة عربية في البصرى سنة ١٧٨٥ خارجة على سلطان سليمان الكبير والي بغداد كان همام وابن حبيب من شيوخ العرب في مصر يعملان على تدمير نفوذ المماليك هناك . وعلى الرغم من أن هؤلاء قد فشلوا فان الثورات قد استمرت

١ — تاريخ الشرق العربي والخلافة العثمانية أثناء الدور الاخير ـ الدكتور ضياء الدبس ، صفحة ٧١ .

ولقد وصل العجز في الدولة حدا أصبحت معه تعمل على مكافأة الذين يثورون عليها لكي تكسب ودهم .

ثانيا : الهزة التي احدثها احتلال نابليون لمصر ولقد نتج عن ذلك ما يلي :

١ ــ حدة شعور المتنورين بالطغيان والفساد ، وقد انعكس هذا في الطريقة التي تمت بها مبايعة محمد علي

٢ ــ كما انعكس فيما بعد بمحاولة محمد علي [١] بإنشاء دولة حديثة ــ وان كانت هذه المحاولة قد ارتبطت بحكم فردي صارم .

ب ــ احتلال بريطانيا لبعض مناطق الخليج العربي ، واحتلال فرنسا للجزائر وتونس فيما بعد ــ في مسابقة الصراع من أجل مناطق النفوذ ، ومن أجل مد رقعة المستعمرات وتأمين طريق الهند .

ج ــ نشوء دولة محمد علي ، والبعوث العلمية التي أرسلها والصناعات التي أقامها والفتوح التي قادها في الجزيرة العربية والشام .

ثالثا : شعور بعض رجال الدولة بضرورة الاصلاح وكان من هؤلاء رشيد باشا وفؤاد باشا وغيرهما وتأثيرهم على السلاطين وكان من ذلك صدور منشور « الكلخانه » سنة ١٨٣٩ وهو خط سلطاني قرىء في حفل رسمي بقصر

---

١ وطنية شوقي ــ الدكتور أحمد محمد الحوفي (٢٠ ــ ٢١)

« الكلخانه » في بداية عهد السلطان عبد المجيد يقرر التأمين على الروح والعرض والمال ، وكانت هذه الأمنية من أعز الأماني نتيجة للفوضى السائدة .

كما كان من ذلك ايضا صدور منشور تنظيمات سنة ١٨٥٦ بعد حرب القرم ، والذي يقرر معاملة جميع تبعة الدولة معاملة متساوية وكانت هذه أيضا أمنية عزيزة نتيجة لما فرضته الدولة من الفروق بين الطوائف .

يتبع ذلك محاولات مدحت باشا للاصلاح ودستور سنة ١٨٧٦ ومحاولات رياض باشا في مصر .

رابعا : البعوث العلمية والمدارس والمطابع والصحف .

صاحب المد الاستعماري في الجزائر وأطراف الجزيرة العربية مد فكرى ، وكان هذا المد يستقي مما يلي :

ا ــ البعوث التي كانت تصل من الغرب للتبشير والتي كانت تتخذ من المدارس وسيلة لذلك ، والبعوث التي كانت ترسل من البلاد العربية ، اما لاغراض تبشيرية أو لأغراض سياسية كالبعوث التي أرسلها محمد علي .

ب ــ المدارس الطائفية والحكومية والوطنية التي افتتحت .

ج ــ المطابع التي استحضرتها الدولة العثمانية أو دولة محمد علي أو الهيئات التبشيرية ، وكانت هذه المطابع تدفع كل عام عددا لا بأس به من الكتب الأدبية والفكرية .

د – صدر عدد كبير من الصحف ، جرائد ومجلات ، علمية وأدبية واجتماعية .

وعن طريق هذه المدارس والصحف والبعوث بدأت افكار الثورة الفرنسية تتسرب الى الأرض العربية فتطبع شعارات العدالة والحرية والمساواة وفلسفة الحقوق الطبيعية في قلوب الظمأى الى الحرية والطمأنينة وكان هذا ناتجا عن تماثل في الظروف فحق الملك الالهي من الناحية السياسية والتسلط الاقطاعي من الناحية الاقتصادية هما ميزة الحكم العثماني وقوامه وهما ميزة الظروف التي ارتبطت بنشوء فلسفة الحقوق الطبيعية وقوامها . كما كان ناتجا عن أن فلسفة الحقوق الطبيعية هي فلسفة ذلك العهد .

* * *

٣ – يقول جورجي زيدان : « فترى مما مر بك ان الجرائد التي أنشئت باللغة العربية منذ اول امرها الى الآن في سائر مدن العالم لا تبلغ المائة والخمسين جريدة بين سياسية وعلمية وطبية وحقوقية وأدبية وغير ذلك ولم يبق منها حيا مع ذلك الا ٥٤ جريدة (١١ و ١٢ و ١٣ و١٤ و ١٥) الهلال المجلد الاول سنة (١٨٩٣) ولكن عدد الصحف ازداد في بداية القرن العشرين وبعد الدستور بشكل خاص .

الثورة الدينية

١

خلال العهد العثماني ، تجمعت حول الدين وعلى عمائم رجاله كل شعوذات الأجيال السابقة وكل خنوعها وانهزاميتها وكما أصبح الشعر مجرد كلمات رنانة معانيها مسخ لمعاني فحول الشعراء وأصبح النثر مجرد ألفاظ طنانة ليس فيها شيء من عمق الأداء وسلاسة العربية ، وكما أصبح الشعر والنثر وسيلة للوصول الى مجالس الأمراء وللحصول على بعض فتاتهم فقد أصبح الدين مثل الشعر والنثر مجرد عمائم ولحى وديباجات معادة مكرورة تعبر عن جمود العصر وانهزاميته .

وكما حط الشعراء والكتاب على أبواب الأمراء والملوك الظالمين ، حط رجال الدين فوسعوا حلقة الرياء والزلفى ، وأسبغوا على الطغيان ثوب القوة وعلى البغي ثوب الرحمة وجعلوا من الظالمين المستبدين خلفاء النبي العربي الكريم وممثلي سلطان رب العالمين .

« ان رجال الدين الاسلامي الذين كانوا يعرفون

بهذا الاسم كانوا كثيرين ومتنوعين : القضاة ، المُفْتُون، الائمة ، الخطباء ، السادة الاشراف ، المشايـــخ ، المدرسون ، طلبة العلوم ، الدراويش والمريدون ، وعدد هؤلاء كان يزداد على مر السنين وتأثيرهم في الناس وفي الشئون العامة كان يشتد بنسبة ازدياد عددهم من ناحيـــة وبنسبة اشتداد ضعف الدولة وفساد أمورهـــا من ناحية أخرى .

وفي عصور الانحطاط صارت الدولة تلجأ الى وساطتهم في كثير من الأمور وتسعى الى استرضائهم في شتى المناسبات ، حتى انها كانت توجه اليهم فرامين — في بعض الأحيان — وأوامر علية تطلب اليهم مساعدة الولاة وصارت المضابط التي تنظمها جماعة من هؤلاء بالاشتراك مع بعض الوجوه تلعب دورا هاما في عـــزل الولاة ونصبهم وصار أصحاب المطامع يسعون وراء اغرائهم بتحقيق أغراضهم الخاصة .

ولا حاجة الى القول أن عدد هؤلاء كان يزداد في المدن الكبيرة ويبلغ حده الأقصى في مقر السلطنة نفسها .

ومما تجب ملاحظته أنه في الوقت الذي كان عددهـــم يزداد ونفوذهم يشتد أخذ مستواهم العلمي ينحط وثقافتهم الدينية تتردى بصورة سريعة وصارت تنتشر بينهم ضروب من التعصب الأعمى وتنتقل منهم الى الناس وتستولي حتى على عقول الحكام والسلاطين .

« وعندما نستعرض حركات التنظيم والاصلاح سنجد أمثلة عديدة على مقاومة جماعات من العلماء لهـا ، واشتراكهم في الحركات الرجعية والثورات الهدامة التي حاولت أن تقضي عليها . وسنرى أن تلك الجماعات لعبت دورا هاما في الثورة التي قامت ضد النظام العسكري الجديد سنة (١٨٠٧) وفي الثورة التي اندلعت ضـد المشروطية (الدستور) سنة ١٧٠٩ . [1]

لقد وقفت جمهرتهم بعناد في وجه الاصلاح والعـلم والفكر الحر باسم الدين ورفضوا أي فهم للدين يختلف مع فهمهم له ، حتى أصبح مجرد التفكير في أمور الدين والدنيا بدعة وخروجا . وهكذا فلقد كانت أسباب الثورة الدينية متوفرة نتيجة لتوفر اسباب الثورة القوميه سياسية واجتماعية واقتصادية .

وفي نهاية القرن الثامن عشر وجدت هذه « الثورة » متنفسها في دعوة ثورية كانت تطوف الحجاز يبثها رجل من رجال الدين يدعى محمد بن عبد الوهاب ، ولكـن هذه الدعوة التي حاربت كل البدع والشعوذات في الاسلام وأنكرت قداسة الأولياء وشفاعتهم ، ومحاولة ارجـاع الإسلام الى صفائه الأول ، ازدادت خطورتها سياسيا عندما ارتبط بها البيت الحاكم في نجد آنذاك .

ومن هذا المنطلق أخذت هذه الفكرة تشتد وتمتد الى

---

١ الدولة العثمانية والبلاد العربية ، ساطع الحصري . صفحة ٤١ و ٤٢ ، ومذكرات البارودي – فخري البارودي ، صفحة ٧٠ .

أن اجتمعت حولها القبائل وأصبحت خطرا يهدد ما حولها فاستعدت السلطنة عليها محمد علي حاكم مصر الذي بادر الى ضربها ضربات قاصمة جمدتها ، وعلى الرغم من ذلك فان هذه الضربات لم تستطع أن تقضي على روح التمرد هذه التي انطلق شرارها في المشرق والمغرب ليبعث في اليمن محمد الشوكاني وفي المغرب (ليبيا) محمد السنوسي [1]

لقد كانت الوهابية حركة عنيفة ، لأنها كانت حركة فتح تؤمن بأن الانفصال عن الماضي يستلزم سحقه نهائياً ، وعلى الرغم من هذا فان الوهابية لم تحدث تغييرا جذريا في المجتمع لأنها لم تغير أسس النظام الاجتماعي وان كانت بفضحها الزيف الذي لحق بالدين قد أحدثت هزة في العروق الجاهدة . وجاءت السنوسية لتظهر اهتماما أكبر للعلم وبتنظيم المجتمع ولتملأ المغرب بالزوايا .

٢

ارتبط الهجوم الاستعماري على الوطن العربي خاصة والشرق عامة بمحاولات للنيل من الاسلام وتسفيهه . وكان القصد من ذلك تمزيق روح المقاومة التي أبدتها شعوب

١ – ثم الحركة (المهدية) في السودان وغيرها من الحركات الاسلامية في أفريقيا .

الشرق ، ومنع أية امكانية للوحدة في مقاومة الاستعمار . ولكن هذا الهجوم على الاسلام أنتج أثرا معاكسا ، وأصبح الدفاع عن الدين بمثابة الدفاع عن مقومات الوجود والحياة الوطنية .

في هذه الفترة أخذ الاهتمام بالاسلام يزداد ، خارجا عن حدود الاهتمام التقليدية ، وأصبح المنافحون عنه يعتبرون أحياء امجاده قضية الجلسات والحلقات والمنابر ، كما أصبحت العناية بذكرى المولد النبوي تقليدا وطنيا .

وفي هذه الفترة بالذات ترددت الدعود لانشاء جمعية اسلامية في مكة (ام القرى) وكان من الذين دعوا الى ذلك محمد رشيد رضى صاحب ، « المنار » أما الكواكبي فانه قد سجل مناقشات طويلة تحت اسم « أم القرى » تناول فيها حالة العالم الاسلامي والطرق المؤدية الى تحريره بطريقة حوارية ناضجة ، وعلى السنة مسلمين من مختلف أقطار العالم .

ولما كانت الهجمات تتوالى على الاسلام ، وكان الاسلام هو العنصر الحي في تكوين هذه الأمة ، فقد أصبح الرد على هذه الهجمات العمل الخطير الجدير بالاجلال .

وكان الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده صاحب جولات موفقة في هذا الميدان ، وخير مثال على ذلك رده على « هناتو » ورده على فرح أنطون (الذي سنناقشه فيما

بعد) حتّي أن حافظ ابراهيم شاعر النيل قال فيه :

فأنت لها ان قام في الغرب مرجف

وأنت لها ان قام في الشرق مرجف

ارتبط هذا كله بدعوة دينية اصلاحية بذر بذورها جمال الدين الأفغاني وتعهدها بصبره وجلـــده ووضوح فكره . ثم قادها بنجاح الشيخ الامام محمد عبده .

* * *

٢

الباب الأول

التيار الديني، نشأته وبعض ملامحه

مقدمة

١

ظل التيار الديني ينمو ، بينما كان التفاعل بين الشرق والغرب يلد تيارا جديدا ، يختلف في طابعه ونقطة انطلاقه عن التيار الأول وإن كان لا يختلف عنه كثيرا في شعاراته المرحلية . فالأول يعتبر اصلاح الدين ، أساس اصلاح المجتمع ، أما الثاني فيعتبر أن اصلاح المجتمع لا بد أن يصلح الدين . ولقد كانت نقطة الالتقاء بينهما ان الأول حاول ان يجبر الدين على استيعاب قضايا

العصر ، بينما حاول الثاني ان يقنع الناس بأن الدين لا يتناقض مع تفكير العصر ، ولا يعجز عن استيعاب قضاياه . وكان كل منهما يقصد قصده ، فالأول يريد ان يقدم الدليل على أن الدين صالح وعلى أنه لا حاجة للعدول عنه الى النظريات الغربية . ويريد الثاني ان يثبت انه لا يعادي الدين ولا يخرج عليه في تبنيه للقضايا التي يثيرها الفكر ، كما يريد - وهو الهام - ان يكسب تأييد الدين والمتدينين في المعركة التي يخوضها .

وهكذا فتح الأولون باب الاجتهاد ، وأعطى الآخرون معنى للدين يتفق مع ما يريدون ، وأخذ كل من التيارين يعمل على توسيع مجرى نهر النهضة وتعميقه . [1]

نشأة التيار الديني

٢

بدأ التيار الأول بالوهابية واستمر مع السنوسية

١ - يصور الفرق بين التيارين شكيب ارسلان قائلا « فقال الأحرار ان المسلمين لا مندوحة لهم عن الأخذ عن الغرب واقتباس الأفكار منه واتباع طريقته في جميع ما هو لازم وضروري لبلوغ الغاية العليا ، وقال أرباب الجامعة الاسلامية ان الاسلام لصالح كل الصلاحية لكي يستمد منه جميع ما هو لازم لذلك فلهذا ينبغي ان يقصر أمر الأخذ عن الغرب على محاكاته في انتهاج مناهجه العلمية والاستعانة بوسائله العادية فحسب » (٢٩٤) . حاضر العالم الاسلامي .

والحركات الاصلاحية الأخرى في الوطن العربي وفي العالم الاسلامي ، ولكنه لم يصبح تيارا له فعاليته ألا عندما وفد جمال الدين الى مصر حيث استقطب مجموعة من الشباب العرب وأخذ يبثهم من افكاره الحرة الجريئة ، حتى ، فجر فيهم ينبوع الثورة فانطلقوا يبشرون بالاصلاح وكان على رأس هؤلاء محمد عبده وعبد الله النديم .

لقد كان الأفغاني يحرك العاصفة أينما حل .

وعندما ترك مصر مكرها كان قد غرس شجرة الحرية التي أخذ الرواد يحجون اليها من كل مكان ولا سيما من الشام . حيث كان الاحرار يعيشون تحت وطأة كابوس مرعب وكان من الوافدين عبد الرحمن الكواكبي ومحمد رشيد رضا .

بعض ملامح هذا التيار

٣

اعتبر هؤلاء أن اصلاحنا لا يكون الا باصلاح ديننا ، ويكاد يكون رأيهم في السبب الذي دعاهم الى مثل هذا الاعتقاد واحدا ، فهم يرون ان انحطاط المسلمين راجع الى التشويش والتشديد في الدين ، يقول الكواكبي :

اعلم ايها المفتي المحترم ان هذه الحالة التي أنتم عليها من التشويش والتشديد في امر الدين هي أكثر اسباب انحطاط المسلمين بعد القرون الاولى في شئون الحياة كما انحط قبلهم الاسرائيليون بما شدده وشوشه عليهم اهل التلمود. وكما انحطت الأمم النصرانية لما كانت ارثوذكسية مغلظة او كاثوليكية متشددة يتحكم فيها البطارقة والقسيسون، بما يشاؤون تحت اسم الدين، فكانوا يكلفون الناس ان يتبعوا ما يلقنونهم من الاحكام بدون نظر ولا تدقيق حتى كانوا يحظرون عليهم ان يقرأوا الانجيل او ان يستفهموا عن معنى التثليث الذي هو أساس النصرانية، كما ان التوحيد أساس الاسلامية وبقيت كذلك الى ان ظهرت البروتستانت أي الطائفة الانجيلية التي رجعت بالنصرانية الى بساطتها الاصلية وأبطلت المزيدات والتشديدات التي لم تأت في الأناجيل [1] » كما أنهم كانوا يعتقدون بأن الاستبداد الديني ناتج عن الاستبداد السياسي، يقول الكواكبي « قد تضافرت آراء اكثر المحررين – السياسيين من الافرنج على ان الاستبداد السياسي متولد من الاستبداد الديني، والبعض القليل منهم يقول ان لم يكن هنالك توليد فلا شك انهما اخوان او صنوان قويان بينهما رابطة الحاجة على التعاون بتذليل الانسان [2] .

---

١ – (٩٨ –) أم القرى للكواكبي .(٣٢) الكواكبي حياته وآثاره – محمد أحمد خلف الله

٢ – (١٢) طبائع الاستبداد للكواكبي

ولقد ترتب على اعتبارهم التشويش والتشديد في الدين سبب انحطاط المسلمين وعلى اعتبارهم الاستبداد الديني سبب الاستبداد السياسي ، ان اعتبروا اصلاح الدين هو طريق الاصلاح ، يقول الكواكبي والحاصل ان كل المدققين السياسيين يرون ان السياسة والدين يمشيان متكاتفين ويعتبرون ان اصلاح الدين اسهل منالا وأقوى واقرب طريقا للاصلاح السياسي [1] .

ان الكواكبي فيما أوردناه ، يبين علاقة الاستبداد الديني بالاستبداد السياسي ، والاصلاح الديني بالاصلاح السياسي ، ويرى ان سبيل اصلاح الدين هي خير سبيل للاصلاح ولكنه لا يبين لنا الاسس التي يبني عليها هذا الاعتقاد ولا المدققين السياسيين الذين اعتمد آراءهم ، أكان ذلك لمكانة الدين في حياة المسلمين ام لسبب آخر ...؟

يجيب على هذا السؤال الشيخ الامام محمد عبده اجابة شافيه ، فهو يعتقد :

اولا : ان في الدين ما يكفل الاصلاح .

ثانيا : ان العدول عنه الى ما يسميه طُرُق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين يتطلب انشاء بناء جديد لا يوجد من مواده شيء « ولا يسهل ايجاد أحد من عماله » .

---

١ ــ (١٦) طبائع الاستبداد للكواكبي

ثالثا : ان عناء ارجاع الناس الى الدين أخف كثيرا من عناء استحداث مذهب لا المام للناس به . »

وهو يقول في هذا « وهذه سبيل لمريد الاصلاح في المسلمين لا مندوحة عنها . فان اتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين يحوجه الى انشاء بناء جديد ليس عنده من مواده شيء ولا يسهل عليه ان يجد من عماله احدا . واذا كان الدين كافلا تهذيب الاخلاق وصلاح الاعمال وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها ، ولاهله من الثقة به ما بيناه ، وهو حاضر لديهم والعناء في ارجاعهم اليه أخف من احداث مالا المام لهم به فلم العدول عنه الى غيره ؟ [1]

والشيخ الامام في وصوله الى هذه النتيجة يبدأ من نفس النقطة التي بدأ منها الكواكبي ، فيعتبر ان ارجاع الدين الى بساطته الأولى وتجريده مما الحقته به عصور الظلمه ، هو سبيل السلامة : « حتى اذا سلمت العقائد من البدع تبعتها سلامة الاعمال من الخلل والاضطراب » [2]

ولا شك ان هذا الرأي الذي قدمه محمد عبده « واقعي » اذ ان الجماهير في ذلك الوقت كانت من الجهل في جهة ، ومن التعلق بالدين في جهة ثانية ـ

١ ـ (١٤٤) رائد الفكر المصري ـ الدكتور عثمان أمين .
٢ ـ (١٤٣) » » » »

على الرغم من ان هذا التعلق لم يكن يعني الصلاح — بحيث يستحيل العمل الا من خلاله . وليس هذا غريبا ما دام الاعتقاد السائد جعل الدين غاية البشر ونهايتهم وما دام « المفكرون » المصلحون كانوا يرون ان « الدين قوام الأمم وبه فلاحها وفيه سعادتها وعليه مدارها [1] »

يقول الدكتور محمد خلف الله في دراسة له متعلقة بهذه الظاهرة من خلال دراسته للكواكبي : « ان الكواكبي يفعل ما فعله أو كان يفعله أكثر معاصريه اولئك الذين يحاولون الاصلاح على اساس من الدين .

« لقد كانوا يفكرون في المسائل بعقل عصري ، يفهمون المسائل من وجهة النظر العلمية وسواء في ذلك عندهم ان تكون المسألة سياسية او اقتصادية او اجتماعية ان العلم والعقل النظري أساس الفهم عندهم وبعد هذا الفهم العميق الدقيق ينقلون المسألة الى الدين ويربطون بينهما برباط قوي متين ، يفعلون ذلك لغرضين : الاول منهما فيما نرى تجنب معارضة الحاكمين ، ذلك لان الحاكم حين يعلم ان ما تنادي به الجماعة من اصلاح ليس الا الدين لا يعاند ولا يكابر وانما يرضخ او يحاور او يداور ، الثاني منهما : ان الامة حين تؤمن بالاصلاح على انه أوامر الدين ونواهيه لا يثنيها عنه حاكم مهما يستبد ويظلم وانما تظل

---

١ (١٧) رد على الدهريين — جمال الدين الأفغاني

حريصة على الاصلاح داعية اليه ما دام في قلبهـا ايمان واعتقاد .

هذا مذهب هذه الجماعة وتلك خطتهم وطريقتهم ولم يخرج الكواكبي عن ان يكون واحداً منهم [1] .

٤

ان المتتبع لهذا التيار ، يرى أنه ذو طبيعة اجتماعية ، ويرى ان تسميته بالتيار الديني ناتجة عن اعتبار حل المشاكل يجب ان يبدأ من الدين للاسباب التي سبق ذكرهـا ، لا لأي سبب آخر .

وبهذا لم يكن هذا التيار يبحث عن حل لمشكلة دينية فقط ولكنه كان يبحث عن حل لقضايا العصر من خلال الدين . ولقد ميزه كون كل القادة والمحركين فيـه من جمال الدين الافغاني الى محمد عبده الى محمد رشيد رضا من الائمة والفقهاء المتبحرين في علوم الدين والعربية .

ولطبيعته الاجتماعية هذه ، فلقد كان لرجالـه موقف واضح من كثـير من القضايا ، كالدولـة والاستبداد والاستغلال والعلم والدين والاستعمار والمادية والثورة الفرنسية والاصلاح الديني .

يقول الدكتور عثمان امين في حديثه عن الشيخ الامام

---

١ (٨٨) الكواكبي حياته وآثاره ـ محمد احمد خلف الله .

محمد عبده : ونستطيع ان نجعل وجوه نقده للمجتمع المصري في أربعة جوانب رئيسية ، عقلية ، وأخلاقية ، ودينية ، واجتماعية [1] » .

ولقد جاء في مقدمة كتاب الافغاني « الرد على الدهريين » ان « تعالم جمال الدين ترمي في صميمها الى غرضين : اصلاح الاسلام ليساير المدنية الحديثة وتحرير الشرق من سيطرة الغرب [2] » .

ولقد كان هذا التيار دعوة لاحترام الانسان والعقل والحرية..

٥

قبل ان نبدأ بالحديث عما جاء به هذا التيار ، عن الروح الثورية التي بثها وعن المفاهيم التي قدمها في الدولة والامة والحرية والاستعمار [3] لا بد لنا من ان نتتبع نشأته لنحدد كيف بدأ ولماذا . والحقيقة اننا لا نستطيع ان نتحدث في مثل هذا قبل ان نشير الى ان الدين في هذه الفترة كان مجموعة من الاساطير « والروايات » التي لا بد من الأخذ بها والتي تعتبر كل محاولة لنقدها او نرفضها خروجاً وبدعة . ومن هنا كان لا بد من الرجوع الى التاريخ العربي لاستحضار أرواح

١ (٧٩) رائد الفكر المصري ـ الدكتور عثمان امين .

٢ (٩) الرد على الدهريين ـ جمال الدين الافغاني .

٣ سنتعرض لذلك بالتفصيل فيما بعد .

هؤلاء الذين عملوا على تقديم وجهـات نظر سليمة عن الدين ، مثل ابن تيمية وابن قيّم الجوزية . كما كان لا بد من الاكتفاء – خوفاً من الاتهام – بالقول بضرورة الأخذ – بعد الكتاب والسنة ، بما يقبله العقل فقط .

ونستطيع ان ندرك هـذه البداية في حديث للشيخ عبد القادر المغربي عن دراسته يقول فيه ان الدراسة كانت تقوم على :

أ – التدقيق في سند الخبر وروايته .

ب – تدقيق النظر في امكانية الخبر وعدم امكانيته .

جـ – تمييز نصوص الدين والحرص على فهمها فهماً حراً [1] .

وكان مثل هذا التدقيق يقود الى رفض الكثير من الرواسب والشوائب الدينية ، كما كان يقود الى التحرر من كثير من الآراء الغربية والمدسوسة التي تقف حائلاً دون التطور .

مثّل محمد رشيد رضا هذه الحركة في كتاب له أسماه « محاورات المصلح والمقلّد والوحدة الاسلامية » واستطاع فيه ان يرسم نموذجاً لعقلية المصلح والمقلد آنذاك كما استطاع ان يقدم لنا عدداً من القضايا التي كانت مثـار الجدل بين الفريقين . وتبـدأ محاورات محمد رشيد رضا بهذه المقدمة : « نقص على القراء حديث محاورات بين

١ (١٣-١٤) محاضرات عن الشيخ عبد القادر المغربي ـ محمد اسعدطلس.

شاب من مريدي الاصلاح الذاهبين الى وجوب خروج الأمة مما هي فيه من التقاليد الحادثة في الملة والرجوع بالدين الى بساطته الاولى حيث كان يتناوله رعاة الشاء من كثب بالاقتصار على هدي الكتاب وصحيح السنة وسيرة السلف وحذف كل ما زاده الخلف من الغلو في الدين وتكثير التكاليف وابرازها بصور تعتاص على الاذهان ، وبين شيخ من المحافظين على التقاليد التي عليها الامة من قرون طويلة المعتقدين ان الاخذ بالكتاب والسنة مخصوص بالمجتهدين وانهم قد انقرضوا ويستحيل وجود غيرهم وان كتب المتأخرين من أموات العلماء خير من كتب المتقدمين وأجمع وأفيد في التحصيل وأنفع [1] »

انه بهذه الكلمات يرسم لنا صورة واضحة للفرق بين العقليتين ولاختلاف طبيعة كل من النظرتين فالاولى ايجابية تحترم العقل وتفسح له المجال للحركة والثانية سلبية تقتصر على الاكتفاء من العقل بالمحافظة الببغاوية المستلمة .

وهكذا فبينما كان يرى المصلح « بأنه عضو من أمة يسعد بسعادتها ويشقى بشقائها ويرى امته أشقى الامم وأتعسها » كان المقلد يرى أن هذا اغتياب للمسلمين ومخالفة لما اجمع عليه من ان أمة محمد على خير » . ثم بينما كان المصلح يرى ان لكل شيء وقعنا فيه سبباً وأن لكل مرض علاجاً وان الهيئة الاجتماعية كالهيئة الشخصية

١ محاورات المصلح والمقلد والوحدة الاسلامية ـ محمد رشيد رضا .

تمرض بسبب وما دام فيها رمق من الحياة فلا بأس من شفائها ، كان المقلد يرى « ان السبب هو ترك الشريعة عملاً وحكماً وأنه ما من علاج لان قيام الساعة قريب[1] » .

ان غاية هذه الدعوة — كما هو واضح وكما بيّنا — هي الرجوع بالدين الى بساطته الاولى بتطهيره من «الاساطير» و « الخرافات » .

٦

هذه الحركة « الثورية » التي بدأت باعتبار الرجوع بالدين الى بساطته الاولى قضيتها . حركه نبعت من أرض الرسالة ، من الجزيرة العربية ومنها انتشرت في الاقطار العربية والاسلامية لتبعث مئات الزوايا في المغرب ولتحرك الكثير من الرواد في اليمن والهند و ...

لكنها — وعلى الرغم من هذا وعلى الرغم من ان دوافعها تظل ذاتية وخاصة — الا انها — ولا سيما بعد الحركة الوهابية ووليداتها — تبدو متأثرة بالاصلاح الديني في اوروبة تأثراً واضحاً ونحن نكاد نلمس هذا في كتابات الافغاني والكواكبي خاصة .. فالوهابية — والحركة الدينية من بعدها ، لم تكن تختلف عن « الاصلاح الديني » في

١ (٤-٥) محاورات المصلح والمقلد والوحدة الاسلامية — محمد رشيد رضا .

دوافعها وفي غاياتها وان كنت لا أستطيع ان أجزم بوجود صلة بينهما . واذا نحن نظرنا الى حركة الاصلاح الديني هنا وهناك وجدنا تشابهاً يكاد يكون تاماً في الدوافع والغايات نجمله بما يلي :

أ ـ الثورة الدينية في أوروبة جاءت لترفض رئاسة البابا والأيقونات والمطهر وطلب شفاعة القديسين والتقليد الخ... والثوره الدينية في الشرق جاءت لترفض مثيلات هذه الدعاوى من اعتبار السلطان خليفة الله على الأرض الى قبول شفاعة الاولياء الى غير ذلك .

ب ـ أعلنت الثورة الدينية في اوروبة أن لكل انسان حق الحكم من جهة الأمور الدينية وحرية الضمير من دون معارضة [1] ولقد أعلنت الثورة في الشرق حرية الضمير فرفضت القيود التي فرضها المغالون والتقاليد التي تبناها رجال الدين واعتبرت باب الاجتهاد مفتوحاً .

جـ ـ أعلنت الثورة الدينية في اوروبة أن الكتاب المقدس هو القانون الوحيد وهذا ما فعلته الثورة الدينية في الشرق اذ أعلنت ضرورة الرجوع الى كتاب الله وسنة رسوله .

كما ان الذي يعود الى الاسباب ـ أسباب الثورة يجدها واحدة وان كان هنالك اختلاف في الملابسات التي أدت الى نشوب كل من الثورتين . ذلك ان الثورة الاولى بدأت

---

١ دائرة المعارف البريطانية (٣٨٠) الجزء الخامس مادة بروتستانت.

نتيجة خلاف بين ممثلي الامبراطور والكنيسة على الاصلاح ، أما الثانية ــ الثورة الدينية في الشرق ــ فقد تفتقت عنها عبقرية محمد بن عبد الوهاب الذي اعلنها اعلاناً دموياً .

واذا كانت اسباب الثورة الدينية في اوروبة معقـــدة ولكنها من الممكن ان أن تجمل تحت العناوين الاربعـــة التالية : أخلاقية وعقائدية واقتصادية وسياسية[1] فان أسباب الثورة الدينية في المشرق معقدة ولكنها من الممكن انتجعل تحت نفس العناوين . فالدعوات السابقة للاصلاح والقضاء على البدع ، والجمود الذي سيطر على الفكر والخرافات التي أصبحت عقائد ، وحياة رجـــال الدين والظروف السياسية التي عاشهـــا العرب والمسلمون منذ نهاية العهد الراشدي حتى تحكم الاتراك باسم الدين ، وفساد السلطـــة الدينية ، هذه كلها مهدّت لهذه الثورة .

وعلى الرغم من ان انتشار الثورة في اوروبة كـــان أسرع وانشقاق المجتمع كان أصرّ الا ان النتائـــج ظلت واحدة وهي الدعوة لحرية الفكر وحرية العبادة .

ان هذا لا يبدو في « الوهابية » شرارة الثورة الأولى بمقدار ما يبدو في أفكار من جاؤوا بعدها من المصلحين أمثال الافغاني وعبـــده والكواكبي ومحمد رشيد رضا ، هؤلاء الذين درسوا الثورة الدينية في اوروبة فيما درسوه ولهذا كثر ذكرها في كتاباتهم عن الاصلاح .

---

١ دائرة المعارف البريطانية (٣٢) الجزء ١٩ .

« لقد كانت الحركة الدينية البروتستانتيـــة في ذاكرة زعماء الاصلاح الديني من المسلمـــين . في ذاكرة السيد جمال الدين الافغانى وفي ذاكرة الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده وفي ذاكرة عبد الرحمن الكواكبي[1] »

وكان الافغاني يعتقد « انه لا بد للمسلمين من حركة الاصلاح الديني البروتستنتي منذ عصر لوثر[2] » .

وهكذا بدأ الاصلاح الديني « بالوهابية » ولكنه انتهى الى دعوات اصلاحية ينادي بها مفكرون أحرار ، تختلف كثيراً عن الوهابية فيما ترمي اليه وان كانت تنطلـــق من نفس الأسس تقريباً .

---

١ (٢٣) الكواكبي حياته وأثاره – محمد احمد خلف الله .

٢ (٩) الرد على الدهريين – جمال الدين الافغاني .

الباب الثاني

التيار العلمي، نشأته وبعض ملامحه

المقدمة

اذا كنا نستطيع ان نؤرخ بداية التيار الديني «بالثورة الوهابية» فاننا لا نستطيع أن نؤرخ لهذا التيار بحادثة مشابهة ، ذلك انه كان نتيجة عوامل كثيرة وتفاعل طويل ولكنه لم يبدأ بانفجار فيؤرخ به . وعلى الرغم من ان بعض المؤرخين يعتبرون غزوة نابليون لمصر بداية عهد النهضة فاننا لا نستطيع أن نأخذ بهذا . فغزوة نابليون لم تترك من الاثر ما يجعلها حداً فاصلاً . وبداية تاريخية ، وعلى هذا فأننا نعتبر ان حركة الاصلاح بدأت مع بداية

القرن التاسع عشر وان التيار – الذي نحن بصدد الحديث عنه – ولد نتيجة التفاعل بين الشرق والغرب الذي كانت غزوة نابليون اول حلقة واضحة فيه[1] .

١

عندمـــا حط جيش نابليون في أرض مصر حصلت الملامسة الحادة الاولى بين الشرق والغرب ، وعندما وزع نابليون منشوره الاول على عرب مصر وقع اول اصطدام بين فكر الشرق وفكر الغرب .

وعلى الرغم من ان طبيعة الغزو فرضت على العرب النفور من نابليون ومن افكاره ، وعلى الرغـــم من ان اضطراب الاوضاع خلال اقامة الفرنسيين وقصر مدة اقامتهم والحرب المستمرة بينهم وبين السلطنة من جهة وبينهم وبين الشعب من جهة أخرى ، وعلى الرغم من ان هذه الاشياء قد فرضت العداء لهم ولتنظيماتهم وأفكارهم كما منعت عدم تخمرها في ارضنا . الا ان هذا الاتصال قد أوجب المقارنة بين قوتهم وضعفنا ، علمهم وجهلنا ، أسلحتهم وأسلحتنا تنظيمهم وتنظيمنا .

---

١ وطنية شوقي – الدكتور أحمد محمد الحوفي ، صفحة ١ .
و « في مجرى السياسة اللبنانية = اوضاع وتخطيط » كمال جنبلاط ، صفحة ٧٩ ، ٩٢ .

عندما اضطر الاستعمار الفرنسي للرحيل جاء محمد علي الى الحكم وكان مجيئه بطريقة استشارية لم تعرف من قبل ذلك ان الزعماء الذين وعدهم الاحتلال الفرنسي بالديمقراطية والذين لمسوا قوة الشعب خلال مقاومة الاحتلال ، نصبوا محمد علي والياً وأيدوه مؤكدين حق هذا الشعب في اختيار واليه . الا ان عدم دوام المراقبة ، لم يجعل لهذا الاختيار الا القيمة التاريخية .

وعلى الرغم من ان محمد علي قد طغى واستبدّ الا أنه التفت نحو فرنسا وغيرها من الدول الاوروبية كإيطاليا والنمسا فاستقدم منها الخبراء والاساتذة وارسل اليها البعوث ولقد ترجم في عهده عدد من الكتب العلمية ، في الطب والفنون العسكرية وغيرهما . وكانت مدرسة « الالسن » هي محور هذه الحركة . ولكنّ هذا كله لم يكن كل ما ولده الاتصال بين الشرق والغـــرب ، ذلك ان البعوث اطلعت على الحياة الغربية عامة والفكر الغربـي خاصة فنقلت الى العربية كثيراً من انطباعاتها وترجمت عدداً من الكتب الاساسية .

ومن هذه الكتب الاساسية التي نقلت الى العربية :

أ ــ القانون المدني ، وهو الجزء الاول من « الكود الفرنسي » وقد ترجمه رفاعة الطهطاوي وعبدالله ابو السعود

سنة ١٢٨٣ هـ [١]

ب ـ ترجمة مونتيسكو .

جـ ـ أصول الحقوق الطبيعية ـ التي يعتبرها الافرنج أصلاً لاحكامهم وقد ترجم في عهد محمد علي [٢]

د ـ قانون التجارة الفرنسي ، وقد طبع سنة ١٢٨٥ هـ .

لقد قدم رفاعة تفاسير تقدمية لآراء الثورة الفرنسية في الحرية والمساواة تبدو فيها سعة المعرفة وحرارة الايمان .

وهكذا نستطيع ان نقول ان رفاعة الطهطاوي مع رجال البعوث كانوا من اعظم المجاري التي تسربت خلالها الى الشرق العربي آثار من مبادىء الثورة الفرنسية وكبار مفكريها [٣] .

ولكن البعوث لم تكن المجرى الوحيد الذي يسيل فيه فكر الغرب الى الشرق . فأفكار الثورة الفرنسية اندفعت تحفر لها مجاري الى كل بقاع الارض . لا سيما البقاع التي وقع أهلوها تحت ظلم الدول الكبرى . وكانت اليونان وشعوب البلقان من الشعوب الكثيرة التي وقعت تحت وطأة الاستعمار العثماني، والتي ثارت غب الثورة الفرنسية لاسترداد استقلالها وحريتها . « ومعلوم ان ريحاً من الثورة الفرنسية

---

١ (٩٩) حركة الترجمة بمصر في القرن التاسع عشر ، جاك تاجر .

٢ (٥٥) « « « « « «

٣ (٨٩) الفكر العربي الحديث ، رئيف خوري .

ما لبثت ان هبت من غرب اوربا على البلقان في شرقها، فساعدت على ايقاد لهيب من الثورات الاستقلالية على الحكم العثماني . وكانت أبعد هـــذه الثورات صدى في الشرق العربي ثورة اليونان التي حررتهم بعد نضال طويل دام سنة ١٨٢٧ – ١٨٢٩ [١] » . ونفـــذت هذه الريح الى الامبراطورية العثمانية « وقد بدأت طلائع فيها من أهـــل العقول النيرة تشعر بوجوب الاصلاح [٢] » .

ولذلك عندما جاء السلطان سليم الثالث الى الحكم سنة ١٧٨٩ – السنة التي حدثت فيها الثورة الفرنسية – قام ببعض الاصلاحات المظهرية ووضع نظاما جديدا للجيش ولكن « الانكشارية » ثارت عليه وقتلته والغت هـــذا النظام [٣] وعلى الرغم من هذه النكسة فلقد استمر في فكرة الاصلاح فكانت اصلاحات سنة ١٨٣٩ وسنة ١٨٥٦ التي مر ذكرها في باب سابق لتمهيد دستور سنة ١٨٧٦ .

٢

من مظاهر الوعي الاصلاحي

مظاهر هذا الوعي ثلاثة :

اولا : مقارنة ما وصل اليه الغرب بما عليه

---

١ – (٩٤) الفكر العربي الحديث – رئيف الخوري

٢ – (٩٤) « « – « «

٣ – سنة (١٨٠٧) وسيأتي ذكر هذه الحادة فيما بعد .

الشرق .

ثانيا : الافتخار بالتراث العربي والعناية بدراسته والتذكير به .

ثالثا : دراسة الفكر العربي والاهتمام بالعلمي منه ، وبنظرية النشوء والارتقاء خاصة .

أولا ــ المقارنة بين حياة الشرق وحياة الغرب .

نرى الروح المقارنة هذه في محاضرة ليعقوب صروف تلاها في مدرسة البنات السورية في بيروت عندما احتفلت المدرسة بتوزيع الشهادات على الصف المنتهي . يقول يعقوب صروف « واني أراني مضطرا ان أبسط لديكم اولا بعض ما أعرفه عن التمدن الأوروبي تمهيدا لماسأذكره عن أحوالنا الحاضرة والمستقبلة فأقول : إنّ من نظر في أحوال أوربة وأميركة رأى الاهلين يتسابقون في مضمار الاختراع والاكتشاف كأنهم خيل الرهان فلا يمضي شهر حتى يخترعوا أوفا من الالآت والأدوات والأساليب لاستخراج المواد وتركيبها . ولا يمضي عام حتى يكتشفوا كثيرا من المكتشفات العلمية التي تسهل الأعمال وتزيد في راحة البشر ورفاههم او توسع نطاق المعارف وترفع ستار الغوامض وكل شيء من مصنوعاتهم قد بلغ غاية قاصية تحار عندها العقول . فعندهم من السفن ما طوله نحو اربعين قدما وثقله نحو ثمانين الف أقه ، ومن الجسور الحديدية ما طوله نحو ستة الآف قدم ومن المكاتب مـــا

فيه اكثر من مليون ونصف من المجلات . وكل الأشياء العظيمة بلغت عندهم غاية العظم والأشياء السريعة بلغت أيضا أشد السرعة والدقيقة اشد الدقة . فالباخرة تقطع من أوروبا الى اميركا في نحو ستة ايام فقط والسكة الحديدية تقطع في الساعة نحو ثمانين ميلا . والمعمل من معاملهم يمكنه ان يجز الصوف ويغسله ويمشطه ويغزله ويعصره ويصبغه ويحيكه ويفصاله ويخيطه ويفعل كل ذلك في نهار واحد . والمطبعة من مطابعهم تبل الورق من نفسها وتطبعه وتجففه وتطويه وتخيطه وهي تطبع في الساعة الواحدة سبعة عشر الف كراس وصناعهم يحفرون الف خط متواز في مساحة القيراط الواحد وينقشون تاريخا مطولا على سطح الابرة الواحدة ، ويصنعون قناديل كهربائية نور الواحد منها قدر نور مائة الف شمعه وأنوارا أخرى تضمّن في الحلي الصغيرة التي تزدان بها النساء . وجرائدهم تعد بالالوف وعشرات الالوف ويطبع من بعضها ست مائة الف نسخة كل يوم . وبعض كتبهم يطبع مرارا عديدة في السنة الواحدة ، ويطبع منه كل مرة الوفا كثيرة من النسخ . وعلماؤهم يبحثون في كل شيء من جراثيم البكتيريا التي لا تراها العين ولو كبر جسمها الف مرة الى النجوم الثوابت التي هي اكبر من الأرض بمالا يقدر ، وقد خاضوا البحار وجابوا القفار ... وحللوا كل المواد التي وصلت اليها يدهم في البر والبحر

والهواء والتراب ولم يتركوا فعلا من افعال الطبيعة ولا عملا من اعمال البشر الا بحثوا فيه البحث المدقق فالنشائد التي ينشدها اولاد البرابرة في أزقة بعض الجزائر البعيدة « والالياس » « والاوذيسا » اللتان نظمهما اوميروس مليك الشعراء ؛ والعفن المتولد على بعض الجدران والارز النابت على اعالي لبنان والبرق والرعد والعواصف وكل ما يرى في اليقظة والمنام كل ذلك بحثوا فيه وأظهروا منه الغرائب حتى قال بعضهم انه لم يبق مواضيع جديدة لنبحث فيها فيجب علينا ان نعود الى المواضيع القديمة ونمحصها ونستخرج كلياتها .

فهذه هي صورة اوروبا العلمية الأدبية — هذه هي صورة التمدن الاوروبي [1] هكذا يرسم يعقوب صروف صورة للتمدن الاوروبي . انها صورة مادية بحتة ولا شك تهتم بالجانب العلمي دون الالتفات الى الجانب الخلقي . ولكنها صورة مناقضة تماما لصورة الواقع العربي ، ولا شك ان الوان هذه الصورة كانت تبعث في السامع رعشة من الشوق والتطلع نحو المجهول .

ان هذه الصورة المادية نفسها انعكست في ذهن أحمد فارس الشدياق [2] رفضا للحضارة الغربية . فالشدياق

(١ — (١٤٣ — ١٩٤) المقتطف — المجلد الثامن السنة الثامنة .

٢ — كنز الرغائب في منتخبات الجوائب — الجزء الأول (الطبعة الأولى) صفحة (٤)

يرى ان الغرب يفوقنا في الصنائع والحرف المعاشية فقط . وهو عندما يقرر ذلك لا يغفل عن ذكر تردى الحالة الخلقية في اروبة بل يصم التمدن الاوروبي بالهمجية .

وطبيعي ان تتجه الأذهان بعد هذه المقارنة الى المطالبة بالاصلاح ولما كان الوضع فاسدا لم تبق منه زاوية الا عششت فيها المعفونة فالاصلاح لا بد ان يكون شاملا . ومن هنا كانت الدعوة للاصلاح تشمل العناصر الأساسية في حياة المجتمع . يقول فارس نمر « ان حاجاتنا كثيرة وافتقارنا الى الاصلاح عظيم وأهم ما يسوغ لنا النظر فيه من الاصلاحات هذه الليلة اربعة : اصلاح زراعي واصلاح صناعي واصلاح علمي واصلاح ادبي ديني »[1]

ولكننا عند ما ننعم النظر في دعوته هذه نجد ان الاصلاح الزراعي الذي يطالب به ليس الا مقارنة بين الزراعة في الشرق والزراعة في الغرب لا تلتفت الى أوضاع الشرق السياسية والاقتصادية ، من ظلم السلطنة واستغلالها ، الى ظلم الاقطاع والولاة واستغلالهم . وهو يعتقد ان مجرد توفير خبراء في الزراعة يعني حل الأزمة والخروج منها . يقول في الدراسة نفسها : « ولذلك يقول قوم اعطنا رجالا خبيرين بالزراعة مجتهدين بالعمل يعطون الأرض حقها من الحرث والقلب والتسميد والتقب

١ – المقتطف المجلد الثامن السنة الثامنة ٢٢٦

ويحسنون العناية بالمواشي والانعام آمنين غوائل الزمان بعيدين عن بليات الفقر والهوان ونحن نتكفل بأن تعـود البلاد فتفيض لبنا وعسلا وتجرى منها الخيرات أنهارا وتتوفر لها الثروة حتى ترتقي في معارج التمدن وتصير في مقدمة البلدان وهؤلاء هم المنادون بالاصلاح الزراعـي المعلقون نجاح الوطن عليه »[1]

والجدير بالذكر انه تحدث عن الاصلاح الصناعي بنفس الروح بعد ان ربط بينهما وجعل التقدم الزراعي مرهونـا بالتقدم الصناعي . ويكاد يكون حديثه عـن الاصلاح الصناعي مقتصرا على وصف وضع الصناعة عندنا ووضعها في اوروبة وما فعلته اوربة حتى « ارتفع شأن صناعها وتوفرت لهم اسباب التهذيب وكثرت . بينهم وسائط التمتع بنعيم بلادهم [2]

وعندما يتحدث عن الاصلاح العلمي يذكر ماضـي سورية العلمي ثم يصف حالة التدريس بالسوء لانه يعتمد على حشو الذاكرة اكثر مما يعتمد على تغذية العقول ، ولانه يكتفي بالنحو في حين يهمل حقائق الكون وقوات الطبيعة » [3] التي لا بد من معرفتها ، دون أن ينسى التلويح بما وصل اليه الغرب في ميدان العلم .

---

١ ـ ٢٣٠ ـ المصدر السابق .

٢ ـ ٣٣٤ ـ المصدر السابق

٣ ـ ٢٦٠ ـ » »

اما عندما يتحدث عن الاصلاح الأدبي الديني فهو كبر « مثالية » على الرغم من اشارته الى قضايا هامة . انه يصف هذا الاصلاح « بالعملي » ويعلق عليه أمل الخلاص من الانقسام معتبرا هذا الانقسام نوعا من اللهو « بالمشاحنات والمشاكمات والتظاهرات الدينية عن اصلاح السيرة واخلاص السريرة » [1] . وهو يرد الى مثل هذا الوضع الفرقة والشقاق بما ينتج عنهما من عدم الثقة وموت « الصناغة والزراعة والتجارة والعلم » [2]

وواضح من هذا كله ان فارس نمر — كغيره — لم تكن لديه فكرة واضحة عن معنى الاصلاح ، كما ان الاصلاح الديني الذي دعا اليه لم يكن ذا صلة بفكرة الاصلاح الديني الذي تحدثنا عنه سابقا والذي انبثق منه تيار ثوري من رواده الافغاني وعبده والكواكبي » .

فالاصلاح الديني هنا ذو معنى أقرب وأبسط ، معنى عملي مرتبط بعلاقة الطوائف بعضها بالآخر . واذا كانت هنالك دعوة للرجوع الى الله والدين فهي ليست الا وسيلة لمقاومة الانقسام « والطائفية »

ولقد ذهب شبلي الشميل هذا المذهب فاعتبر الاصلاح الديني اساسا من أسس النهضة وسببا من أسباب القوة في

---

١ — ٢٨٣ المصدر السابق

١ — ٢٨٣ » »

العمران [1]

وهكذا نرى ان الاصلاح الديني كان شعارا من شعارات الاصلاح الشامل في نظر رواد هذا التيار ولم يكن منطلق التيار كما هي الحال عند رواد « التيار الديني » الذي سبق ان تحدثنا عنه .

٣

رافق ذلك كله ميل الى دراسة الفكر الثوري في التراث العربي والى الاشادة به فالى جانب اهتمام رواد التيار الديني « بالتراث العربي عامة وبتراث ابن تميمه وابن قيم الجوزية — اهتم رواد التيار العلمي » بتراث ابن خلدون والغزالي وابن رشد وغيرهم ، كما اهتم هؤلاء وأولئك بالبطولة العربية فتتبعوا قصصها في التاريخ . وأخذوا يرددونها ليبعثوا الثقة في نفس العربي وليشعروه بأن له رصيدا من الفكر الثوري والمواقف البطولية . ولذلك فنحن نجد كثيرا من الآيات القرآنية

---

١ — (١٩١) مجموعة الدكتور الشميل — الجزء الثاني « قال »وأسباب القوة في العمران كثيرة وترد الى اربعة تعد دعائم ، اثنتان طبيعيتان وهم العدد والجنس . واثنتان أدبيتان وهما الدين والعلم .

الحية والأمثال السائرة مثل موقف الرجل الذي وقف يشكو الظلم في الكعبة على مسمع من الخليفة المنصور ، نرى كثيرا من ذلك في الكتابات التي انتجت خلال هـذه الفترة .

ثم ان هنالك ميلاً للتفاخر بهذ التراث ، ولقد كتبت مقالات كثيرة في المقتطف مثلاً تحت العناوين التاليـة : « العرب وبعض مآثرهم » و « علوم العرب وبعـض مآثرهم [1] »

اذا كان « التيار الديني » يبدو متأثراً بالفكر الغربي – ولا سيما الاصلاح الديني والثورة الفرنسية – كما بينا ، فالتيار العلمي قد عمل على اقتباس الفكر الغربي ولا سيما نظرية النشوء والارتقاء اقتباساً كلياً . ولذلك فبجـانب « التيار الديني » الروحي بطبيعته والذي يتجه الى الله قبل ان ينظر الى الانسان كان ينمو تيار مادي يتجه الى الطبيعة بدل ان يتجه الى السماء ، وكان من رواد هـذا التيار الدكتور شبلي الشميل وسلامة موسى ، كما كانت مجلـة المقتطف ممثلة لهذا الاتجاه .

يقول سلامة موسى : « وفي السنين الثلاثين او الاربعين الماضية كان المقتطف يلقي في أذهان القراء نظرية التطور ويبدي ويعيد فيها شهراً بعد شهر حتى أشربت عقـول

---

١ المقتطف المجلد الثالث صفحة ٥٧٥ ، ٨٩٥ .

طائفة من قرائه بهذه النظرية فتجرأ الناس بذلك على نقد الاساطير [1] » .

ولقد ارتبط هذا الفكر الجديد بالحديث عن الاجتماع والعمران [2] وتاريخ الاجتماع الطبيعي [3] والحياة وأصلها والانسان [4] والدين [5] والمذهب الداروني ، والاحزاب الاشتراكية وغير ذلك مما له علاقة بارتقاء الامم وانحطاطها.

ولما كان لا بد لهذا التيار من الاصطدام بالتفكير الديني ، فلقد حاول بعض رواد الاحتيال على ذلك — سواء كانوا مؤمنين او غير مؤمنين — باعتبار ان هذا الفكر لا يناقض الوحي ولا ينفيه . ولقد اشتركت مجلة المقتطف بعملية « الاحتيال » هذه ومما قالته بهذا الصدد :

« يرى البعض ان العلوم الطبيعية مضرة تشكك فيما أوحي به في الكتب المنزلة وينكرون منافعها ويزعم غيرهم انها تشكك في الدين ويقررون منافعها ، وغيرهم أنها صادقة نافعة ويكذبون الوحي لاجلها ويقول الباقون انها مصداق

---

١ حرية الفكر وابطالها في التاريخ — سلامة موسى ص ٩٥

٢ مجموعة الشميل ، الجزء الثاني ، الدكتور شبلي الشميل ص ٢٢

٣ « « « « ٣٤

٤ « « « « ١٠

٥ مجموعة الشميل ، الجزء الثاني ، وكتابات بشارة — زلزل عن الحياة وأصلها والانسان ، في مجلة المقتطف صفحة ١٥٧

الوحي وبهجة العقول ومعدن الرفاهية وهؤلاء لا ريب هم المصيبون [1] »

وهكذا نجد أن أصحاب الفكر المادي — حتى الآن — يربطونه بالتفكير الديني معتبرينه مصداقاً له .

٤

ان المقارنة بين الحالة في الشرق والحالة في الغرب كانت تؤدي الى ما يلي :

أ — الحديث المستمر عن ضعف الشرق وهزاله ، وقوة الغرب واستعداده ، الشيء الذي كان ينتج عنه المطالبة باتباع الوسائل التي يتبعها الغرب في الصناعة والزراعة والتجارة . جاء في المقتطف : فان كان ذلك كله تدبير الأمم الوافرة الثروة المتسعة ، ترى ألا يليق بنا نحن الاهتمام بهذه الأمور وما شاكلها وقد ظهرت لنا حقيقة حالنا وتأكدنا قصورنا وتبيّنا تبذيرنا ، على جودة تربيتنا واعتدال أهوائنا ، أو لا يحق لنا ان ندعو أصحاب

---

١ المقتطف ، المجلد الاول ص ١٦٩

العلم ذوي الآراء الصائبة الى اعمال النظر في هذا الموضوع المهم – اي كيفية ادخال الصناعة الى البـــلاد والوسائط اللازمة لذلك [1] »

ب – محاولة تحرير الدين من الخرافات والرجوع به الى بساطته الاولى وفتح باب الاجتهاد [2] .

ج – انتقاد جمود المعرفة عندنا وقصور أساليبها، يقول متري قندلفت ، أما قصورنا في المعرفة فهو :

«١» في اقتصارنا على العلوم اللغوية والمعارف الدينية .

«٢» في نقص طرق التحصيل .

و – كشف حقيقة الاستبداد والمطالبة بالحرية والاخاء والمساواة والمناداة بالدستور .

ه – الاهتمام بالمرأة ومقارنة حالتها بحالة المرأة الغربية من حيث قعود هذه ومشاركة تلك في الحياة العامة وقد كتبت عدة أبحاث في المرأة والفرق بينها وبين الرجل وفي مسؤولياتها وواجباتها ولكن كل هذه الابحاث قـــد

---

١ اللقتطف ، المجلد الاول ص ١٢

٢ مجموعة الدكتور شميل ، الدكتور شبلي الشميل ، الجزء الثاني ص ٥٧

أبقت المرأة تابعة للرجل على الرغم من انها طالبت بتحريرها واعترفت بأهميتها في الحياة الاجتماعية [1] .

---

١ يستطيع ان يلمس ذلك بوضوح كل من قرأ آراء رفاعة الطهطاوي وأحمد فارس الشدياق وقاسم أمين ومحمد عبده في المرأة وسنتحدث عن ذلك بالتفصيل في فصل لاحق .

الباب الثالث

في الثورة والأمة والدولة والحزب والاشتراكية

مقدمة

عبأت الثورة العروق .. بدأ الارتعاش ينتقل من قلب الى قلب ، ومن بلدة الى بلدة ومن قطر الى قطـــر ، وشعر الشعب عامة ورجال الاصلاح خاصـــة ان الدستور الذي أعلن سنة ١٨٧٦ بارتقاء عبد الحميد الى سدة الخلافة كان نصراً وتطوراً ؛ وان هذا التطور لا بد ان يستمر ، غير ان السلطان الجديد الذي افتتح عهده باعلان الدستور نقض ما أقسم عليه بعد فترة وجيزة فألغى الدستور وأعاد الدولة أشد « اوتوقراطية » مما كانت عليه . ولكن ظـــلم

عبد الحميد وجبروت السلطنة مـــا كانا ليستطيعا اخفاء ضعفها وهزالها وان كانا قد أجلا موعد انهيارها الى عام ١٩٠٨ عندما عاد الدستور من جديد .

في هذه الفترة تبلورت آراء في الثورة والامة والدولة والحزب والاشتراكية وغيرها من القضايا الهامة . وكان هذا طبيعياً ومنسجماً مع منطق المرحلة فالاتصال بالغرب وما نتج عنه وبداية عهد ثوري جديد في الامبراطوريـــة العثمانية يفرض طرح مثل هذه القضايا ومناقشتها .

فما هي الآراء ... آراء الرواد في مثل هذه القضايا ؟

الثورة

١

الحديث عن الثورة يستلزم البحث عن دوافعها وغاياتها كما يستلزم البحث في وسائلها وأساليبها .

أ ــ الدوافع : ان الظلم الذي كان يفرضه الجهـــاز الحاكم على الجماهير وأساليب التعسف والارهاب والاضطهاد التي كان يمارسها الولاة على الشعب وتسرب فكر الغرب الى الشرق ، حرك روح التمـــرد والثورة ، لا سيما ان

الاتصال بالغرب ودراسة فكره ومعرفة تاريخه – ولو على نطاق محدود – والمحاولات الثورية المسلحة في اليونان والجزائر واليمن ، قد غذت هذه الروح ودفعتها الى الميدان ولكن هذه الروح الثورية كما يبدو ظلت في مستوى الانفعال وعلى صعيد الرد مما جعل نظرتها « مثالية بحتة » او عامة . يقول أمين الريحاني : « ان روح الثورة حية عاملة في دوائر الحياة كلها [1] » . ولكن اديب اسحق يعطيها معنى اكثر واقعية عندما يقول : « ما أنتم أصحاب الثورة انما أصحابها الذين يوجبونها بما يظلمون [2] » . فالثورة اذن حية عاملة في دوائر الحياة كلها – كما جاء في قول الريحاني – وهي – كما جاء في قول اديب اسحق – تنتج عن الظلم فهو الذي يوجبها . وهكذا فهي تبدو في القول الاول حركة طبيعية ، من الطبيعة ، بينما تبدو في القول الثاني حادثاً ينتج عن اختلال في الحياة الاجتماعية .

ويبدو أن رواد الاصلاح قد اتجهوا اتجاهين بالنسبة لدور الفكر ودور الجماهير في الثورة ، الاتجاه الاول ويعتبر ان الفكر ينشيء الثورة ، ومن القائلين بهذا نوفل الطرابلسي في « سياحة المعارف » والبستاني في « دائرة المعارف [3] » . اما الاتجاه الثاني فقد ربط الثورة بالجماهير

---

١ الريحانيات ، أمين الريحاني ، الجزء الثالث روح الثورة

٢ الدرر ، أديب اسحق ، الثورة ص ١١٧

٣ الفكر العربي الحديث – رئيف خوري ص ١٢٠

الذين يقاتلون عن انفسهم « كما يقول اديب اسحق » والذين هم على بينه مما يقصدون « . وليست حركتهم دعوة لزعيم او عصيانا لزعيم »[1] وواضح هنا ان الثورة لم ترتبط بالجماهير فحسب بل ارتبطت بالفكر ، فالثوار على بينه مما يقصدون كما ارتبطت بالدفاع عن الوجود ، مجرد الوجود ، فهم يقاتلون عن انفسهم وبحكم الشعب لأن الثوار ليسوا دعاة زعيم او عصاة زعيم .

ب — الغايات : قد يكون تتبع الغايات أسهل من تتبع الدوافع وان كانت الغايات والدوافع واحدة ، ذلك ان الغايات تظهر واضحة اذا لم تتضح الدوافع ، لا سيما ان وراء الدوافع دائما تاريخا طويلا معقدا ليس من السهل تتبعه وسبر اغواره . ثم ان الغايات دائما تعرف مما تحقق نظريا او عمليا بالكتابة والخطابه او بالسلوك والعمل ومن خلال هذا تبحث الدوافع .

اما غايات الثورة — كما تبدو — فهي :

اولا : الاصلاح الذي يبدأ من الدين عند رواد « الاصلاح الديني » لينتهي باصلاح المجتمع ، والذي يبدأ من العلم عند رواد « الاصلاح العلمي » لينتهي الى تغيير الحياة الاجتماعية ، ولقد تحدد عامة باصلاح زراعي وصناعي وديني وسياسي[2]

١ — الفكر العربي الحديث — رئيف خوري (١٢١)

٢ — فصلت هذا في موضع سابق

ثانيا : كما كان الاصلاح السياسي مرتبطا بالشورى في نظر رواد « الاصلاح الديني » ولقد عرف الافغاني بانه من أشد دعاة الشورى احرارا كما عرف الكواكبي بدعوته الثائرة الى مثل هذا .

ثالثا : ارتبطت الدعوة للشورى بالدعوة للدستور فيما بعد .

رابعا : مقاومة الاستبداد وتسفيهه واظهار أسبابه ونتائجه وأفضل دليل على هذا كتاب « طبائع الاستبداد » لعبد الرحمن الكواكبي .

خامسا : مقاومة الاستعمار الذي امتدت ظلاله على الشرق عامة والوطن العربي خاصة ، مؤكدة أبشع انواع الاستغلال والسيطرة .

سادسا : تأمين الحرية الفردية السياسية والدينية [1]

سابعا : كان هنالك من يدعون ليقظة عربية ولكن الشعور الاسلامي كان يطغي أحيانا ، بينما كان الشعور بوحدة سورية الطبيعية يطغى أحيانا أخرى .

النشوء والثورة

٢

يبدو ان رواد الاصلاح قد اتفقوا على ان الثورة

١ – طبائع الاستبداد الكواكبي (١١٨)

تنشأ نشوءا بطيئا بسبب اختلال اجتماعي ، وانها طارئة بينما النشوء هو الأصل ، وكلهم متفقون — كما نرى — على ان التدرج افضل من الثورة ، وان الثورة تعني الدمار وسفك الدماء ولذلك ربطها بعض رواد الاصلاح لفظا ومعنى بالفتنة كما فصل الكواكبي في كتابه « طبائع الاستبداد » .

يقول الدكتور الشميل في هذا الصدد « ويلزم ان تكون الثورة صادرة عن استعداد باطن كأنها اتفاق خفي بين أعضائه (المجتمع) موافقة لأمياله ، ان تكون عبارة عن صوت الشعب لكي تكون قانونية والا انقلبت شرا عليه . والثورة التي تكون كذلك هي ثورة لا تغلب ولا تقاوم لأنها ليست من افعال الافراد بل هي عبارة عن تخلص الجسم كله مما ثقلت وطأته عليه تخلصا طبيعيا قانونيا لأنها ليست بالحقيقة سوي فعل سريع لقوى متجمعة تجمعا بطيئا في زمن طويل أشبه شيء بالزوبعة التي تتجمع في سنين كثيرة ولا تثور الا في يوم واحد ثم تهجع ، ولذلك يقال ان النشوء هو القاعدة وأما الثورة فأمر شاذ ردىء غالبا وان كان قانونيا نافعا أحيانا » [1] .

ويقول أمين الريحاني : « من الحقائق الرائعة : ان الثورة للأمه كالحمام للانسان تنبه فيه الدم وتوقظ النشاط ناهيك بالنظافة ، فالجمود الملازم لحكومات الشرق كلها

---

١ = المقتطف — المجلد العاشر — شبلي الشميل (٢١٥)

والفساد الذي اعتراها والاقذار التي تراكمت عليها لا يزيلها غير الحمام ، حمام الثورة الغالي . » [1] ويقول أيضا « الثورة الحقيقية ونحن من انصارها من رسلهـا انما هي التي يزرع الزمان بذورها في قلوب الناس وفي عقولهم » . [2]

ويقول اديب اسحق — كما ورد سابقا — انما اصحاب الثورة هم الذين يوجبونها بما يظلمون .

وهكذا فالدكتور الشميل قد اعتبرها ضرورية ولكنه اشترط لذلك شروطا منها ان تكون صادرة عن استعداد باطن وان تكون صوت الشعب . وهي عندما تكـون كذلك تصبح حتمية لا تغلب ولا تقاوم ، قادرة عـلى تخليص الجسم مما ثقلت وطأته عليه . وعلى الرغم مـن كل ذلك فهي « امر شاذ وردىء غالبا » وان كان قانونيا نافعا احيانا » . اما الريحاني فيعتبرها ضرورية لانها تنبه الأمة كما ينبه الحمام الجسم ولأنها الرد الوحيد على فساد حكومات الشرق . وهو بهذا يعتبرهـا نافعة ولازمة على ان تتخمر في نفوس الناس فلا تكون فتنة مرتجلة دعوة زعيم او عصيانا لزعيم . اما اديب اسحق فهو يعتبرها ردا واعيا على الظلم فهي بهذا ضرورية مـا وجد الظلم .

---

١ — الفكر العربي الحديث — رئيف خوري (١١٥)

٢ — » » » (١٢١)

ولكن الكواكبي يرى ان « الاستبداد لا ينبغي ان يقاوم بالعنف كي لا تكون فتنة تحصد الناس حصدا » غير أنه يرى « ان الاستبداد قد يبلغ من الشدة درجة تنفجر عندها الفتنة انفجارا طبيعيا » . فالاستبداد هنا هو الذي يولد الثورة والثورة فتنة « تحصد الناس حصدا » ويجب ان تتلافى . وهو يرى على الرغم من ذلك — ان هنالك احوالاً يعددها تهيج العوام ضد المستبد وتؤدى الى الفتنة وهي :

اولا : عقب مشهد دموي مؤلم يوقعه المستبد على مظلوم يريد الانتقام لناموسه .

ثانيا : عقب حرب يخرج المستبد منها مغلوبا ولا يتمكن من الصاق عار الغلب بخيانة بعض القواد .

ثالثا : عقب تظاهر المستبد باهانة الدين اهانة مصحوبة باستهزاء يستفز حدة العوام .

رابعا : عقب تضييق شديد عام مقاضاة لمال لا يجده حتى أواسط الناس .

خامسا : في حالة مجاعة لا يرى الناس فيها مظاهرة من المستبد .

سادسا : عقب ما يستفز الغضب الفوري كتعرض المستبد لناموس العرض أو حرمة الجنائز في الشرق وناموس القانون او الشرف الموروث في الغرب .

سابعا : عقب حادث تضييق يوجب تظاهر قسم كبير

من النساء في الاستنصار .

ثامنا : عقب ظهور موالاة شديدة من المستبد لمن تعتبره الأمة عدوا لشرفها الى غير ذلك من الامور المماثلة [1] .

وواضح ان الكواكبي يعتبر الثورة حتمية في احوال مخصوصة ولكنه يعتبرها اطلاقا امرا شاذا ورديئا وهو هنا يلتقي مع الدكتور الشميل في اعتباره الثورة امرا شاذا ورديئا وفي اعتبارها حادثا طارئا ، كما ان كلا من الكواكبي والشميل يرى ان للثورة اسبابها الاجتماعية وان كان الكواكبي يخاف الثورة أكثر مما يخافها الشميل . ذلك ان ثورة الكواكبي هي مجرد فتنة عارمة ، ليست الثورة التي يزرعها الزمان في قلوب الناس كما يقول الريحاني وليست الثورة التي تنفجر نتيجة استعداد باطن وتخمر طويل كما يقول الشميل . ويبدو الكواكبي اقرب الى اديب اسحق القائل : انما أصحاب الثورة هم الذين يوجبونها بما يظلمون .

اما اتفاق الرواد على ان التدرج أفضل فهو واضح تماماً ، يقول الكواكبي : « الاستبداد لا يقاوم بالشدة انما يقاوم باللين والتدرج » [2] ويقول في تفسير ذلك : « ومبنى قاعدة ان الاستبداد لا يقاوم بالشدة انما يقاوم

---

١ طبائع الاستبداد ـ عبد الرحمن الكواكبي ـ (١٣٣ ـ ١٣٤)

٢ ـ « « « « ـ (١٣١)

بالحكمة والتدرج هو ان الوسيلة الوحيدة الفعالة لقطع داء الاستبداد هي ترقي الأمة في الادراك والاحساس وهذا لا يتأتى الا في زمن طويل لان العوام مهما ترقوا في الادراك لا يسمحون باستبدال القشعريرة بالعافيه الاّ بعد التروى المديد ، وربما كانوا معذورين لانهم الفوا ان لا يتوقعوا من الرؤساء والدعاة الاّ الغش والخداع »[1]

ويقول الدكتور عثمان أمين في كتابه « رائد الفكر المصري » خلال حديثه عن تفكير الشيخ الامام محمد عبده « اقتنع المفكر المصلح اقتناعا يقينياً بأن التقدم الصحيح هو تقدم العلم والتربية والأخلاق وان هذا التقدم لن يكون باقيا الا اذا سار وئيدا أكيدا »[2].

ويقول فيه ايضاً « وكانت غايته رفع مستوى الامة وتقويم اخلاقها والنهوض بها نهضة اجتماعية في تدرج وأناة ومن غير عنف ولا طفره »[3]. ويقول الدكتور شبلي الشميل « ثم لما كان اجماع الارادات في العمران على أمر غير ممكن غالبا وكان القسم الاكبر يبقى معه عدد غير قليل من الناس غير موافق له كان لنا من ذلك قاعدة ثالثة في السياسة وهي ضرورة التدرج في الانتقال من حال الى حال بحيث لا تكون المباينة بين القديم

---

١ ــ طبائع الاستبد د ــ الكواكبي (١٣٢)

٢ ــ رائد الفكر المصري ــ عثمان امين (٨٨)

٣ ــ « « « (٢٩)

والحديث والحاضر والمستقبل كليه والاّ اعترض الانتقال موانع لا تقاوم ولا تحمد معها النتيجة . وتشتد الحاجة الى هذا التدرج كلما كانت النتائج الجامعة للارادات السابقة كالعوائد والاعتقادات اشد وأرسخ » . [1] ويقول أيضا : « فالنتيجة الكبرى المتحصلة من فيسيولوجيا الاجتماعات انما هي تفضيل النشوء على الثورة ، وأعظم وسائط الارتقاء بالنشوء انما هو لاتفاق الذي لا يقر شيئا إلا تدريجيا وبعد ان يتم التراضي عليه . [2] »

ان في هذا كله ما يكفي لاثبات اعتقاد الرواد بأفضلية النشوء على الثورة ، التدرج على الطفره ، كما ان في ذلك ايضاح لمعنى التدرج ولضرورته ولأسبابه . وليس « حمام الثورة الغالي » الذي دعا له الريحاني ليس بالمتناقض مع هذه « الاولية الواضحة » لانه اشترط ان تنشأ الثورة في قلوب الناس وان يزرعها الزمان في عقولهم .

الاساليب والوسائل

٣

البديهية التي لا تحتاج الى برهان أو تفصيل هي ان

١ - مجموعة الدكتور شبلي الشميل الجزء الثاني (٤١)
٢ » » » (٤١)

الاساليب والوسائل من الدوافع والغايات روحها ومنطقها . ان الاساليب والوسائل هي الانعكاس الحي لدوافعها وغاياتها . انها الدوافع والغايات عند التطبيق . وعلى هذا يستطيع الباحث المتتبع ان يرى في الوسائل والاساليب حقيقة الدوافع والغايات اذ انها هي التي تبرزها واضحة جلية .

يقول الكواكبي : « وعندى ان البلية فقدنا الحرية وما ادرانا ما الحرية ، هي ما حرمنا معناه ، حتى نسيناه وحرم علينا لفظه حتى استوحشناه » [1] .

ويقول الافغاني : « اذا صح ان من الاشياء ما ليس يوهب فأهم هذه الاشياء الحرية والاستقلال » .

والذي نفهمه مما تقدم هو انه لا بد لنا من استرداد حريتنا — التي كان يسميها الكواكبي العافية المفقودة — وان هذه الحرية لا تسترد الا بالنضال لانها لا توهب . ولكن ما هي وسيلتنا في ذلك ؟

عندما نحاول ان نجد الجواب نجد تيارين — ليس بينهما حد فاصل — تقف وراء كل منهما نفس الاسباب تقريبا ونفس العوامل مثل استعداد الامة والتضامن والبذل والاتجاه نحو جوهر المدنية . اما التيار الاول فهو يعتمد على الجماهير وتنظيمها ويعتبر انها بدون النضال لا تكون جديرة لحريتها ، واما الثاني فهو يبحث عن مستبد عادل

---

١ ام القرى ـ الكواكبي (٢٢ ـ ٢٣)

وعن سيف بونابرت ويميل في الوقت ذاته الى اصلاح تدريجي يؤدي الى الحرية والاستقلال ويبدأ بالدعوة لاصلاح النفوس التي ابتعدت عن سبيل الدين .

ونحن نستطيع ان نلتمس روح الاتجاه الاول مثلا في كتاب الكواكبي « ام القرى » الذي يعلن فيه ضرورة وجود المنظمة معتبرا اياها وسيلة الاستمرار الوحيدة ، « لان الجمعيات المنظمة يتسنى لها الثبات على مشروعها عمرا طويلا يفي بما لا يفي به عمر الفرد الواحد ، وتأتي بأعمالها كلها بعزائم صادقة لا يفسدها التردد . وهذا هو سر ما ورد في الاثر من ان يد الله مع الجماعة ، وهذا هو سر كون الجمعيات تقوم بالعظائم وتاتي بالعجائب ، وهذا هو سر نشأة الامم الغربية وهذا هو سر النجاح في كل الاعمال المهمة لأن سنة الله في خلقه ان كل امر — كليا كان او جزئيا — لا يحصل الا بقوة وزمان متناسبين مع اهميته وان كل امر يحصل بقوة قليلة في زمان طويل احكم وأرسخ وأطول عمرا مما اذا حصل بمزيد قوة في زمان قصير . وكلنا نعلم ان مسألتنا اعظم من ان يفي بها عمر انسان ينقطع او مسلك سلطان لا يطرد او قوة عصبية حضرية حمقاء وتفور سريعاً »[1] .

---

١ ام القري (١٢) (الكواكبي حياته وآثاره ـ الدكتور محمد احمد خلف الله (١٩)

ان الكواكبي لا يعلن عن ضرورة « المنظمة » فحسب بل يقدم مبررات وجود المنظمة التي تستطيع تحقيق نهضة ثابتة قوية ، غير انا نجد روح التيار الثاني واضحة جلية ايضا فيما نقل عن رواد الطليعة المشهورين مثل الشيخ الامام محمد عبده والافغاني والدكتور شبلي الشميل . يقول الشيخ الامام : « لن ينهض الشرق الا بمستبد عادل » ويقول الدكتور الشميل : « وأية نهضة علمية او ادبية او اجتماعية ترجى من مثل هؤلاء الاقوام الذين لا تجمعهم جامعة ولا تقوم لهم قائمة الا بسيف محمد او بونابرت يعمل في رقابهم ويسوقهم سوق الاغنام»[1] .

والجدير بالذكر ان الدكتور الشميل كان يعتبر نفسه اشتراكياً ، كما ان الشيخ الامام كان في اول حياته جمهورياً [2] وبينما يقدم الشيخ الامام الحقيقة المرة بلهجة المؤمن الواثق يقدمها الشميل بلهجة المتذمر الساخط ، وما يجب الا ينسى هنا ان الشيخ الامام ومؤيديه في هذا الاعتقاد لا يجعلون « المستبد العادل » وسيلة الخلاص النهائية انهم يريدون « مستبدا عادلا » لمدة خمسة عشر عاما فقط ليرتفع بالامة الى المستوى الذي تستطيع ان تنطلق منه.

وهكذا يصبح الاعتقاد بضرورة « المستبد العادل » ناتجا عن ادراك مستلزمات المرحلة ، ولقد جاء الشميل

---

١ – رائد الفكر المصري ـ عثمان امين (١٩١)

٢ ـ مجموعة الدكتور الشميل ـ الجزء الثاني (١٩٩)

ليعبر عن هذه الحقيقة بمرارة فائقة

استعداد الامة

٤

بمناقشة الاساليب والوسائل تطرح مسألة استعداد الامة لتحمل مسئوليتها في النضال ولقد ناقش الرواد هـذه المسألة فيما ناقشوا وكان رأي اكثرهم واضحا في ان نيل الحرية مرتبط بمدى احساس الشعب بها واستعداده للعمل من اجلها « فالامة التي لا تشعر كلها او اكثرها بآلام الاستعباد لا تستحق الحرية » [١] وقد يكون استعداد الامة فجّا « فتنقم على المستبد ولكن طلبا للانتقام من شخصه لا طلبا للخلاص من الاستبداد فلا تستفيد شيئا انما تستبدل مرضا بمرض كمغص بصداع . وقد تقاوم مستبدا بسوق مستبد آخر ، فاذا نجحت لا يغسل هذا السائق يديه الا بماء الاستبداد فلا تستفيد شيئا انما تستبدل مرضا مزمنا بمرض جديد » [٢] كما ان الامة قد تقدم لها الحرية دون ان تكافح في سبيلها « فـلا تلبث تلك الحرية ان تنقلب الى استبداد اشد وطأة كالمريض اذا

١ ـ رائد الفكر المصري ـ الدكتور عثمان امين .

٢ طبائع الاستبداد ـ الكواكبي ـ ١٤٣

انتكس [1] » .

ولقد ناقش هذه المسألة بوضوح الشيخ الامام محمد عبده من خلال رده على مطالبة الجيش في مصر بمجلس للشورى اذ انه اعتبر هذه المطالبة لا تعبر عن رأي الأمة ولا تصور استعدادها ولذلك فانه من المحتمل ان تذهب بها الرياح فتجر المصائب على البلاد ، « فالامة لو كانت مستعدة لأن تشارك الحكومة في ادارة شؤونها لما كان لطلب ذلك بالقوة معنى فما يطالب به رؤساء الجند غير مشروع : لأنه لو تحقق ونالت البلاد مجلساً للشورى لما كان ذلك تصويراً لاستعداد الامة ولا تحقيقاً لمطالبها فلا يلبث ان ينهدم ويزول وأخشى ان يجر هذا الشغب على البلاد احتلالاً أجنبياً [2] » .

ولقد حدث ما توقع الشيخ الامام :

وهكذا فاستعداد الامة هو عنصر التقدم الرئيسي الذي بدونه لا يكون معنى لاصلاح حتى ولو كان الحرية نفسها .

وبما ان الامة كانت تغط في سبات عميق فلقد أصبح التثقيف المتواصل والتنوير الواعي هو الوسيلة الوحيدة لايقاظ وجدانها وبعث الحركة في اوصالها . ولما كان

---

١ طبائع الاستبداد ، الكواكبي ص ١٤٧

٢ « « « « «

الظلم شديداً والجهل اشد . فلقد أحس الرواد بأن عملية التنوير هذه بحاجة إلى الزمن — ما بينته في حينه — .

* لقد كان الرواد في واد والأمة في واد وكانت الامة ابعد من ان تسمع صرخاتهم وأعجز اذا سمعت أصداءها، من ان تفهمها .

التضامن

٥

كانت الامة في هذه المرحلة أشد ما تكون تفككاً . ولقد كانت الطائفية والقبلية المظهرين البارزين لهذا التفكك أما الطائفية فان نارها كانت مشتعلة لا سيما وان مذابح سنة ١٨٦٠ كانت لا تزال ماثلة للعيون .

من هنا بدا ان تضامن الامة ضروري لمقاومة عدوها الواحد . وان هذا التضامن لا يكون الا اذا تناست الأمة أحقادها الماضية واتجهت نحو المستقبل ؛ وبما ان الغرب كان قد تجاوز الانقسامات الدينية فان عيون دعاة الاتحاد الوطني قد اتجهت اليه لتحذو حذوه وللكواكبي في هذا المجال رأي واضح قال الكواكبي : « يا قوم وأعني بكم الناطقين

بالضاد من غـــير المسلمين أدعوكم الى تناسي الاساءات والاحقاد وما جناه الآباء والاجـــداد » . ثم يستأنف : « فهذه أمم اوستراليا وامريكا قد هداها العلم لطرائق شتى وأصول راسخة للاتحاد الوطني دون الديني والوفاق الجنسي دون المذهبي والارتباط السياسي دون الاداري فما بالنا نحن لا نفكر في ان نتبع احدى تلك الطرق او شبيهها فيقول عقلاؤنا لمثيري الشحناء من الاعجام والاجانب دعونا يـــا هؤلاء ، نحن ندبر شأننـــا ، نتفاهم بالفصحى . ونتفاهم بالإخاء ونتواسى في الضراء ونتساوى في السراء . دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الاديان تحكم في الأخرى فقط ، دعونا نجتمع على كلمات سواء ألا وهي : فلتحيا الأمـــة فليحيا الوطن فلنحيا طلقاء [1] » .

وواضح هنا ان الكواكبي يجيب على مشاكل سياسية ثلاث :

الاولى : مشكلة العلاقات بين أبناء الامة الواحدةذوي الاديان المختلفة .

الثانية : المشكلة القومية ، فالاتحاد الوطني الذي يحل المشكلة الاولى لا بد ان يقوم عـــلى أصول راسخة من الوفاق الجنسي دون المذهبي والجنسي هنـــا يعني القومي بالضبط .

---

١ طبائع الاستبداد ، الكواكبي ، ١١٠

الثالثة : مشكلة الطائفية ، ولقد ردها الكواكبي الى مثيري الشحناء من الاعجام والاجانب .

ان الرد على هذه المشاكل الثلاث من صميم روح النهضة

الامة

٦

لا نستطيع ان نحدد موقف الثورة العربية من الامة الا اذا عرفنا التيارات التي كانت تعتمل في قلب الثورة . ونحن نستطيع ان نحدد معالم ثلاثة تيارات :

الاول : قومي عربي
الثاني : ديني اسلامي
الثالث : شرقي

وقبل ان نتحدث عن كل من هذه التيارات لا بد من تقرير البديهية الاولى التي كان الرواد يبنون عليها أساس نظريتهم في الاجتماع . فلقد كانوا يعتقدون اعتقاداً جازماً بأن الاستبداد أصل لكل فساد وبأن الاجتماع ينتهي

بالاستبداد [1] .

يقول الدكتور الشميل : « وفي الجملة وحيثما يبتدىء الاستبداد والقوة ينتهي الاجتماع الحقيقي بين البشر [2] . » وهكذا يرتبط الاجتماع بالحرية في اذهان الرواد ارتباطاً وثيقا .

اولا : — التيار القومي العربي

في النصف الأخير من القرن التاسع عشر كانت فكرة « الجامعة الاسلامية » هي التيار الفاعل والظاهر ، وعلى الرغم من ذلك فهناك ما يدل دلالة واضحة على ان الرواد قد اتجهوا الى الأمة فيما اتجهوا اليه فوضعوا لها التعاريف ، ومن هؤلاء الأديب الثائر اديب اسحق . كما ان هناك ما يدل دلالة واضحة على إن بناء المجتمع على اسس قومية كان واضحا لدى عبد الرحمن الكواكبي .

ا — رأى اديب اسحق في الأمة : يقول اديب اسحق « الامة ... ومن الرجل قومه وفي عرف أهل السياسة الجماعة المتجنسة جنسا واحدا الخاضعة لقانون واحد » ويقول : « وانما المراد بوحدة الجنس اتفاق الجماعة على الاعتزاء الى جنس واحد يتوالدون فيه ويتسمون به كالجنس الاميركاني لسكان الولايات المتحدة

---

١ طبائع الاستبداد ، الكواكبي ، (٣٤)

٢ مجموعة الدكتور الشميل ، الجزء الثاني ، (٤٣)

الامريكية سواء كانوا انكليزاً وفرنسويين او اسبانيين او امريكانيين اصلا والعثماني لسكان البلاد العثمانية في اوروبة وآسية كانوا تركا او عربا او تترا أصلا .

ويقول : « وقد زعم بعض الناس ان من لوازم وحدة الامة لغتها وهووهم » [1] ونحن نجد هنا محاولة لتعريف الامة ولكنها محاولة فجة ولا شك . فالأمة هي « الجماعة المتجنسة جنسا واحدا » و « الخاضعة لقانون واحد » وبهذا يصبح العربي والتركي والتتري ابناء امة واحدة لان جنسيتهم واحدة والقانون الذي يحكمهم واحد . وبهذا أيضا لا تكون اللغة عنصرا اساسيا هاما في بناء المجتمعات القومية . ويبدو هنا اختلاط مفهوم القومية بالجنسية واضحا . والذي لا شك فيه هو ان الاعتماد على العلاقات السياسية دون الثقافية والتاريخية في تحديد مفهوم الامة هو الذي ادى الى مثل هذا التشويش والاضطراب لقد ادى الى الانحراف عن معنى القومية الحق والى الاتجاه اتجاها معاكسا للفكرة العربية التي كانت قائمة على اعتبار العرب امة لها حقها في الحرية والحياة . *

ب — رأي عبد الرحمن الكواكبي . بينت فيما مضى

---

١ الفكر العربي الحديث ، رئيف خوري ، (٢١٦)

لاديب اسحق رأي آخر في الأمة مخالف لهذا الرأي وهو يمثل الوعي العربي في اولى مراحله . انظر (الدعوة للعروبة) الباب الثاني من الفصل الرابع .

ان الكواكبي كان من « دعاة الاتحاد الوطني » القائم على « الوفاق الجنسي » لا المذهبي ولقد خاطب الناطقين بالضاد من غير المسلمين .

لتناسي الأحقاد وما جناه الآباء والاجداد وكان دليله في « الاتحاد الوطني » القائم على الوفاق الجنسي امم استراليا واميركا التي هداها العلم الى طرائق شتى وأضواء راسخة للاتحاد الوطني .

وفي رؤوس المسائل التي طرحها الكواكبي في كتابه « طبائع الاستبداد » للمدققين لانها ذات علاقة بالحياة السياسية « مبحث ما هي الامة اي الشعب » هذا العنوان الذي يتبعه بالسؤال التالي : « هل هي ركام مخلوقات نامية او جمعية عبيد لمالك متغلب ام هي جمع بينهم روابط جنس ولغة ووطن وحقوق مشتركه » .[1]

وعلى الرغم من ان الكواكبي قد طرح المسألة هنا بصيغة الاستفهام وليس بصيغة التقرير الا اننا نرى ان الكواكبي قد طرح المسألة بشقيها ، مسألة الامة كوجود ومسألة حرية الامة . لقد جعل الكواكبي كلمة أمة مرادفة لكلمة شعب وجعل الجنس واللغة والوطن والحقوق المشتركة روابط لأمة . وبما اننا نستطيع ان نفهم من دعوته « للاتحاد الوطني » وتمثله بأمم استراليا واميركا ما معنى الجنس فاننا نعتبر ان رأيه في الامة كان على

١ ، طبائع الاستبداد ، الكواكبي ، ١٢٠

شيء من الصواب . ولسنا ندري ما الذي جعله يتمثل بأمم استراليا واميركا مع ان هذه الامم تمثل اخلاطا من الناس اجتمعت تحت ظروف تاريخية معينة . *

ثانيا : الجامعة الاسلامية : مبدأ سير الجامعة الاسلامية السير المنظم على الخطط المقررة حوالي منتصف القرن التاسع عشر اذ كان للجامعة اسسان قامت عليهما ، هما الطرق الدينية الحديثة النظام كالسنوسية والدعوة التي قامت بها فرقة من جلة العلماء وأكابر المفكرين الحكماء يرأسها السيد جمال الدين الافغاني [1] والجامعة الاسلامية بمعناها الشامل ومفهومها العام انما هي الشعور بالوحدة الواحدة والعروة الوثقى لا انفصام لها بين جميع المؤمنين في المعمور الاسلامي وهي قديمة بأصلها ومنشئها منذ عهد صاحب الرسالة [2] اما غاية الجامعة فهي « ان العالم الاسلامي يجب عليه ان يتحد اتحادا دفاعيا عاما مستمسك الاطراف وثيق العرى ليستطيع بذلك الذياد عن كيانه ووقاية نفسه من الفناء المقبل والوصول الى هذه الغاية الكبرى بما يوجب عليه اكتناه اسباب تقدم الغرب والوقوف

---

١ ، حاضر العالم الاسلامي ، الجزء الاول ، لوثروى ستودارد ، ترجمة عجاج نويهض تعليق شكيب ارسلان ٩٥

٢ ، » » » » ١٨٨

* يبدو ان الاذهان لم تكن مهيأة بعد للتحرر من اثر الرابطة العثمانية والوحدة الاسلامية .

على تفوقه وقوته » [1] .

غير ان حركة الجامعة الاسلامية التي كانت جزءا من حركة التحرر في الشرق عامة والتي ارتبطت بالدعوة للتحرر من قيود الماضي ومن أغلال الاجنبي وبالدعوة لحياة الشورى والدستور ، خرجت عن نطاق السنوسية ودعوة المفكرين الاحرار عندما تبناها السلطان عبد الحميد رسميا وأخذ يكرم دعاتها ويقربهم حتى أصبح الافغاني الحر من اقرب المقربين اليه ولكن نزعة الافغاني التحررية ومحاربته للطغيان حكمت على هذه العلاقة المصطنعة بالانتهاء والذي لا شك فيه هو ان اهداف عبد الحميد من الدعود للجامعة كانت غير اهداف السنوسية والمفكرين الاحرار ومغايرة لهم ، ذلك ان السلطان عبد الحميد كان يسعى لاكتساب العطف الشعبي ولم اشتات الامبراطورية باسم الدين والخلافة .

ثالثا : الاتجاه الشرقي او جامعة التخلف :

في قراءتنا لما كتب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والربع الاول من القرن العشرين نجـد كلمة « الشرق » تتردد باستمرار دون ان تكون ذات مفهوم محدد . ويبدو ان دعاة الجامعة الاسلامية كانوا يستعملونها للدلالة على مقصدهم ، اذ ان اغلبية سكان الشرق الادنى

---

١ حاضر العالم الاسلامي الجزء الاول لوثروى ستودارد ترجمة عجاج نويهض تعليق شكيب ارسلان (٣٠٧)

والشرق الاوسط (حسب تعبير الاستعمار) من المسلمين . كما ان غيرهم كانوا يستعملونها للدلالة غير المحددة على العرب والشعوب المجاورة لهم . ولكن كلمة الشرق « لم تبق على غموضها فلقد عمد الدكتور شبلي الشميل الى اعطائها تعريفا جامعا مانعا ذا مدلول غير الجامعة الاسلامية . فالشرق لفظة تضم بلادا واسعة وأقطارا شاسعة مختلفة الاطوال والعروض والحر والبرد والخصب والجدب تضم فيها امما وشعوبا وقبائل متبايني الأصل والفصل ، مختلفين في الشكل وفي قابليات العقل تجمعهم اليوم جامعة واحدة هي ترخي النظام وفساد الاحكام وانحطاط المدارك العقلية وفساد المبادىء الادبية لاعلم يقيهم ولا عمل يحميهم .. الخ » [1] « وأهل الشرق تجمعهم اليوم جامعة الوقوف والتقهقر في تاريخ العمران » [2] .

الشرق اذن كلمة تعني معسكر التخلف كما يقول مالك بن نبي عن البلاد الافريقية ـ الآسيوية وعلى الرغم من ان تعريف الدكتور الشميل موضعي الا انه لم يستطع ان يضع حدودا معينة لما سماه « الشرق » وهكذا ظل الشرق واسعا شاسعا يضم شعوبا وقبائل تجمعها جامعة

---

١ مجموعة الدكتور الشميل ، الجزء الثاني (١٩٥)

٢ » » » » » » »

التخلف .

اما غاية هذه الدعوة فهو الدفاع عن كيان الأمم المختلفة التي اصبحت فريسة ألاستعمار الغربي ، « ان مجاوزة الحد في الاعتداء تنسي الامم ما بينها من الاختلاف في الجنسية والمسرب فترى الاتحاد لدفع ما يعمها من الخطر الزم من التحزب للجنس والمذهب » [1]

ولقد جاء في مقدمة كتاب جمال الدين الافغاني « الرد على الدهريين » ان الجامعة التي كان ينشدها لم تكن الجامعة الاسلامية كما قيل وانما هي في صميمها الجامعة الشرقية [2] وهذا غير ما شاع عن هذا الكتاب الفيلسوف وأخذ به كثير من الكتاب . والذي اراه هو ان الافغاني كان رجلا حرا يحارب العبودية اينما وجدت .

ويبدو ان هذه الدعوة قد جعلت من القضية المشتركة في مقاومة التخلف والاستعمار منطلقها في العمل . اما بالنسبة لفعالية هذه التيارات فلا شك ان التيار الاسلامي كان أقواها جميعا لانها كانت جداول تبدأ منه لتصب فيه . [3]

---

١ رائد الفكر المصري ، عثمان امين (٢٣٩ ، ٢٤٠)

٢ الرد على الدهريين ، جمال الدين الافغاني (١٥)

٣ يرى اديب اسحق في دراسة له بعنوان (الشرق) « ان تعريف هذا اللفظ عرفي لا ينطبق على حكم علمي » (١٩٨ ، ١٩٩) الدرر

الوحدة الاسلامية بين الافغاني وعبده

٧

اذا تابعنا فكرة الوحدة الاسلامية لدى الافغاني وعبده، وجدنا انها ليست دعوة لايجاد دولة اسلامية واحدة [١] بمقدار ما هي دعوة لتحرير الدين والرجوع به الى اصوله على المستوى العقائدي اما على المستوى السياسي فهي دعوة لتعاون الدول الاسلامية على ان يبقى لكل ذي ملك ملكه [٢] وقد تحمس الشيخ الامام محمد عبده لهذه الدعوة حتى انه طالب بتزعم ايران لقيام مثل هذا « التجمع الدولي الاسلامي » [٣] وحاول آخرون حصر الزعامة في العرب بينما كان هنالك اتجاه عام يجعل الزعامة للأقوى .

---

١ ، تاريخ الاستاذ الامام محمد عبده (٣٠٧) جزء (١) . وما هي القومية . ساطع الحصري ٢١٦

٢ ، ما هي القومية ، ساطع الحصري (٢١٤) .

٣ ، تاريخ الاستاذ الامام محمد عبده ، محمد رشيد رضا .

الدين والقومية

٨

كان الاستاذ الامام محمد عبده — كما كان الافغاني في مرحلة من حياته — يعتبر ان العصبية القومية ضرورة من ضرورات الدفاع عن النفس ولكن العصبية الدينية تتجاوزها وتغني عنها [١] والذي يبدو ان الافغاني لم يثبت عند هذا الرأي اذ انه في احدى مقالاته الفارسية يصر على ضرورة القومية التي يسميها « الجنسية » والتي لا سعادة بدونها ، كما انه يصر على انه لا يمكن ان توجد قومية بلا لغة . [٢] ولكننا لا نستطيع ان نجزم اي الرأيين اقدم تاريخيا .

---

١ ، تاريخ الاستاذ الأمام محمد عبده ، محمد رشيد رضا

٢ ، ما هي القومية ، ساطع الحصري ٢١٨ ، ٢٣٣

الباب الرابع

الدولة والاستبداد والديمقراطية

الاستبداد والدولة

١

شن الرواد حملة شعواء على الاستبداد فاعتبروه أصلا لكل فساد وأخذوا في تحليله والكشف عن أسبابه كل مأخذ ، وكان أروع ما جاء به أولئك في تصويره والتشهير به ، ما جاء به عبد الرحمن الكواكبي في كتابه طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد .

ولقد حدد الكواكبي منشأ الاستبداد فاعتبره « اما من كون الحكومة غير مكلفة بتطبيق تصرفها على شريعة او على أمثله ، او علي ارادة الامة وهذه حالة الحكومة

المطلقة ، واما من كونها مقيدة بنوع من ذلك ولكنهـا تملك بنفوذها ابطال قوة القيد بما تهوى وهـذه حالة اكثر الحكومات التي تسمى نفسها بالمقيدة » [1]

وبما انه ربط الاستبداد بالحكومة فلقد شاء ان يعطي صورة أوضح للاستبداد فيعين أشكال الحكومة المستبدة وهو يرى « أن أشكال الحكومة المستبدة كثيرة ليس هذا البحث محل تفصيلها وتكفي هنـا الاشارة الى ان صفة الاستبداد كما تشمل حكومة الفرد المطلق الذي تولى الحكم بالغلبه او بالوارثه تشمل أيضا الحاكم الفرد المقيد الوارث او المنتخب متى كان غير محاسب ، وكذلك تشمل حكومة الجمع ولو منتخبا لأن الاشتراك في الرأي لا يدفع الاستبداد وإنما قد يعدله نوعا وقد يكون أحكم وأضر من استبداد الفرد ، ويشمل الحكومة الدستورية المفرقـة فيها قوة التشريع عن قوة التنفيذ لأن ذلك أيضا لا يرفع الاستبداد ولا يخففه ما لم يكن » [2] المنفذون مسؤلين لدى المشرعين وهؤلاء مسئولون لدى الامة التي تعرف ان تراقب وأن تتقاضى الحساب .

فالحكومة المستبدة ليست حكومة المستبد فقط ، ولا حكومة الوارث المقيد فقد تكون حكومـة البرلمـان والدستور .

---

١ — طبائع الاستبداد صفحة ٨

٢ — » » » ٨

ويزيد الكواكبي في ايضاح صورته عن الحكومة المستبدة التي « تكون مستبدة في كل فروعها من المستبد الاعظم الى الفراش الى كناس الشوارع ولا يكون كل صنف الا من أسفل أهل طبقته أخلاقا لان الأسافل لا يهمهم جلب محبة الناس انما غاية مسعاهم اكتساب ثقة المستبد فيهم بأنهم على شاكلته وأنصار لدولته ، وشرهون لأكل السقطات من ذبيحة الأمة » [1]

– ولكن لماذا تكون الحكومة هكذا ؟

لماذا تكون ظالمة فاسدة ؟

أتكون فاسدة لانها غير مكلفة بتطبيق تصرفها على شريعة .

ان الكواكبي يجيبنا على ذلك ، فالحكومة تكون فاسدة ظالمة عندما لا تنسجم مع ارادة الامة ، وعندما لا تكون الامة مستعدة للحساب .

ولكن ما هي العلاقة بين الامة والحكومة ؟

يجيب على هذا الدكتور شبلي شميل فيعتبر « الحكومة مظهرا من مظاهر الامة » . [2]

واضح مما تقدم ان للاستبداد أسبابه الاجتماعية ، وان رفضه يعني رفض حالة اجتماعية معينة ، رفض نظام بأسره ، بقيمه وتقاليده ومؤسساته وواضح ايضا ان المستبد

---

١ طبائع الاستبداد صفحة ٤٦

٢ مجموعة الدكتور الشميل صفحة ١٩٠ (الجزء الثاني)

لدى الكواكبي ليس واحدا ولا محددا ، ذلك انهـــا كل نظام لا ينسجم مع ارادة الامة وراثيا كان ام مطلقا ، دستوريا او غير دستوري .

الاستغلال

ربط الكواكبي بين الاستبداد والاستغلال ، وقارن بين الحيوانات والانسان ، الحيوانات التي مـــن غريزتها ان تلتمس الرزق من الله ، اي من مورده الطبيعـــي ، « بينما الانسان حريص على التماسه من اخيه » . [1]

وزاد الكواكبي على ذلك في ايضاحه فبين موقف الاغنياء من المستبد قال : « ومن طبائع الاستبداد ان الاغنياء اعداؤه فكرا واوتاده عملا فهم ربائط المستبد بذلهم فيئونون ويستدرهم فيحنون ولهذا يرسخ الذل في الامم التي يكثر اغنياؤها » . [2]

الثوري والنظام الديمقراطي

٢

ارتبط اسم الافغاني بالحركات الدستورية في مصر

---

١ طبائع الاستبداد صفحة ٥٥

٢ « « « ٦٤

وايران وتركيه وكانت الشورى والدستور هـــي المطلب الاول لرواد الاصلاح وعلى الرغم من ان محمد عبده كان جمهوريا بادىء ذى بدء ، فهو الذي حرر برنامج الحزب الوطني في مصر سنة ١٨٨٢ [١] الا ان أغلبية الرواد كانت تتجه « نحو الملكية او السلطة المقيدة بالدستور » . [٢]

وعلى الرغـــم من ان الدعوة للشورى قـــد ارتبطت بالدعوة لمحاربة الاستغلال والاستعمار وبالدعوة للاشتراكية احيانا الا ان الرواد ظلوا يشعرون بأن النظام الديمقراطي ، نظام الدستور والبرلمان والانتخاب هو افضل ما تحقق ولكنه ليس الافضل اطلاقا ، وان كان الشميل يرى انه « ابلغ ما في طاقة البشر ادراكه بالفعل . »

يقول الكواكبي « والصحيح ان الانسان لم يتوفق حتى الآن لايجاد حكومة دستورية تحكم بمشورة الامة بمعنى الشورى الحقيقي . » [٣]

ويقول الدكتور الشميل « وهذا النظام كثيرا ما لا يبرىء من الخلل الا انه أبلغ ما في طاقة البشر ادراكه بالفعل » . [٤]

فالحكم الجمهوري الذي « ينتخب الرأس فيه من آحاد

---

١ رائد الفكر المصري صفحة ١٩٠ الدكتور عثمان امين

٢ الفكر العربي الحديث صفحة ١٢٣ رئيف خوري .

٣ طبائع الاستبداد صفحة ٨

٤ مجموعة الدكتور الشميل صفحة ٩

الامة ويوجب له هذا الانتخاب عندها ما له من الحكمة والدراية بالامور فيتعاون مع رجال الحكومة على اتمام الحكم في الامة وعليها وعلى قوانين الشورى الحقة [1] هو ابلغ ما في طاقة البشر الوصول اليه ولكنه لا يبرأ من الخلل .

اذا كان هذا هو شأن النظام البرلماني الجمهوري فما هو شأن النظام الملكي المستبد ؟ يقول الدكتور الشميل « وبالجملة ذهبوا الى ان الحكم الوازع يمنع ان يكون مقيدا حق التقييد في مثل هذا النظام الا اذا كان الملك فيه صورة لا حقيقة كما يعهد في بعض الامم (امة الانكليز) وهي مع ذلك اصلح الناس حالا » . [2]

ارادة الامة

٣

جعل الرواد ارادة الامة مقياس سياسة « الاجتماعات » كما انهم جعلوا انسجام اية سياسة مع ارادة الامة هو الدليل على انها السياسة الطبيعية ذات الفائدة .

يقول الدكتور الشميل : « ولكي يتم له ذلك لا بد له من سنن تكفله ولا بد من العدل في هذه السنن اي

---

١ مجموعة الدكتور الشميل صفحة ٢٩

٢ « « « « ٢٨

مراعاة مصالح الجمهور المتبادلة ولا بد من احترامهـا كذلك والا انفصمت عروة الاجتماع وتداعت دعائمه » . [1]

ويقول : « وذهب المحققون الى ان السنن ينبغـي ان تكون تابعة الانسان لا متبوعة به ، اي ان تكون متغيرة لا ثابتة ومقيده ، لا مطلقة حتى تكون نافعة له . لا سببا مانعا لارتقائه والا لما قدر الانسان ان يخطو خطوة عما يفرضه له نظام معلوم ولبقي في كل عصر وفي كل جيل كما كان في العصر الأول والجيل الاول من اجتماعه لان كل جيل له سنن لا تصلح لسواه ، فان لم تتغير هي لم يتغير هو » [2]

اذا فهذه النظم يجب ان تراعي المصالح المتبادلة لئـلا يتفكك المجتمع كما يجب ان تخضع لارادة الانسان وان تكون متطورة حتى تكون نافعة .

« وبما ان الانسان طبيعي في الاصل كان كل مـا يسير به على غير المجرى الطبيعي غير نافع له بل مضرا به ، فسياسة الاجتماعات العاقلة ينبغي ان تكون طبيعية لكي تكون نافعة اي يلزم ان تكون موافقة لارادة الجمهور ولميله ، والا لما تحمد عائدتها ، لان الامر الجاري مجرى لا يوافق ارادة اعضاء الاجتماع انما هو جـار على غير وفـق الارادة الحيوية الـتي هي الرابط للجسم —

---

١ مجموعة للدكتور للشميل صفحة ٢٣

٢ » » ٢٤

السياسي . » [1]

هنا اصرار على اعتبار ارادة الامة هي المقياس ، وعلى اعتبار انسجام السياسة معها هو الاساس ، ولكن ما هي ارادة الامة ؟ وكيف نستطيع ان نعرفها وان نعرفها ؟ وما هو مقياس الانسجام معها او الخروج عليها ، اهو رضا مجموع الامة مثلا ؟

كل هذه قضايا بحاجة الى ايضاح . [2]

فصل الدين عن الدولة

٤

واجه الرواد فيما واجهوا مسألة فصل السلطات وفصل الدين عن الدولة ولقد كان هذا من المطالب الاساسية ، ذلك ان نوع الدولة الديني البيروقراطي استلزم الدعوة لفصل الدين عن الدولة ولذلك « فان رجال الأدب والفكر

---

١ — مجموعة الدكتور الشميل صفة ٤١

٢ — سأحاول الاجابة على هذه الاسئلة في الجزء الثالث من هذا الكتاب .

— عالج جورج بك سمنه موضوع النشوء العقلي والاجتماعي في مصر وتعرض لفصل الدين عن الدولة فقال « وتنتهي بفصل السلطة الدينية عن السلطة الزمنية لا محالة » المقتبس — الجزء التاسع (٥٤٠) كما عالج هذا الموضوع الشيخ الامام محمد عبده في كتابه (الاسلام والنصرانية بين العلم والمدنية) أنظر الفصل الثالث الباب الاول من هذا الكتاب .

عندنا ايدوا جميعاً فصل الدين عن الدولة وحصر نفوذ السلطات الروحية في نطاق خاص بها لا يتعداه ، ومفهوم ان اوضاع الامبراطورية – العثمانية كان فيها ما يدفعهم دفعا الى تأييد هذا المطلب فشاع على الالسنة والاقلام الشعار التالي : « الدين لله والوطن للجميع » . [1]

ولقد اخذ الكواكبي بهذا المبدأ – كما بينا – فطرح هذه القضية في « رؤوس المسائل التي تتعلق بها الحياة السياسية » تحت عنوان : « مبحث التفريق بين السلطات السياسية والدينية والتعليم » . [2]

ان هذا المبدأ أساسي بالنسبة للنهضة وللتفكير القومي اذ انه يحدد موقفا من الدين ، ويحدد ايضا محتوى الدولة الجديدة .

وكان شكيب ارسلان من الذين ناهضوا هذا المبدأ اذ انه أعتبر ان مصطفى كمال يروج هذه الأغلوطة ليسلخ الترك تدريجيا عن الاسلام والعربية ، كما اعتبر ان هذه الدعوة هي من زعم رواد الاستعمار وأعداء الاسلام الذين يدعون بأن اوربة قد فصلت نهائيا بين الدين والسياسة [3] وحاول ان يثبت ان الدولة الاروبية – حتى التي فصلت قانونيا بين الدين والدولة – ما زال للدين

---

١ – الفكر العربي الحديث صفحة ١٣٦

٢ – طبائع الاستبداد صفحة ١٢٥ – ١٣٠

٣ – حاضر العالم الاسلامي ٣٥١ المجلد الثالث

اثر كبير فيها [1] وليس هناك الا ثلاث دول تحارب الدين باطنا وظاهرا هي الجهورية الحمراء الروسية والجمورية الكمالية الانقرية وحكومة المكسيك وانتهى به المطاف الى مهاجمة هذه الدعوة [2]

والتدليل على ان زعماء النهضة الدينية الاوروبية امثال كالغن قد طالبوا باتحاد السلطتين .

---

١ – حاضر العالم الاسلامي ٣٥٤ المجلد الثالث

٢ = » » » ٣٥٨ – ٣٥٩ المجلد الثالث

الحزب

٥

أرتبطت الفكرة العربية بأشكال من التنظيم ، تختلف قوة وضعفا باختلاف اهدافها ومنشئها ، ولقد كانت بعض هذه التنظيمات اصلاحية كالمقاصد الاسلامية التي انشأها مدحت باشا والي سورية ، وبعضها ادبية في الظاهر ولكنها سياسية قومية في حقيقتها « كالجمعية العلمية السورية » التي تأسست سنة (١٨٥٧) والتي كان من ابرز اعضائها ابراهيم اليازجي صاحب — القصيدتين المشهورتين « تنبهوا واستفيقوا ايها العرب » و « دع مجلس الغيد الأوانس » والجدير بالذكر انه القى القصيدة الاولى في اجتماع من اجتماعات هذه المنظمة .

ولقد كان بعض هذه التنظيمات سياسيا كالحزب الوطني في مصر الذي تأسس سنة ١٨٨٢ والذي عرف بدعوته للحرية الشخصية . [١]

---

٢٣ — وجدت منظمات قبل هذا التاريخ .

وكان للفكرة العربية في هذا الميدان رصيد ، ذلك ان الوهابية التي أثرت كثيرا في مجرى الحياة العربية ، فأتت على نوع مـــن التنظيم العقائدي وجاءت السنوسية فطورت مفهوم التنظيم ، ومفهوم العقيدة لدى الوهابية وجعلت منه نظاما كاملا للحياة وقيما عامة تنتظمها .

وعندما بدأت نهاية القرن التاسع عشر وفي العقدين الاخيرين منه على وجه التحديد ازداد الشعور حدة بضرورة التنظيم ذلك ان الصرخات الفردية كانت لا تجدي فتيلا في مثل تلك الفترة التي كانت المسألة فيها ، مسألة حرية ، مسألة حياة ، مسألة شعب مهدد بالزوال .

قال الكواكبي : « لان الجمعيات المنتظمة يتسنى لها الثبات على مشروعها عمرا طويلا يفي بما لا يفي به عمر الفرد الواحد ، وتأتي بأعمالها بعزائم صادقة لا يفسدها تردد وهذا هو سر ما ورد في الاثر من ان يد الله مع الجماعة . وهذا هو سر كون الجمعيات تقوم بالعظائـــم وتأتي بالعجائب وهذا هو سر نشأة الامم الغربية ، وهذا هو سر النجاح في كل الاعمال المهمـــة لان نية الله في خلقه ان كل امر — كليا كان او جزئيا — لا يحصل الا بقوة وزمان متناسبين مع اهميته وان كل امر يحصل بقوة قليلة في زمان طويل يكون احكم وارسخ وأطول عمرا مما اذا حصل بمزيد قوة في زمان قصير . وكلنا يعلم ان مسألتنا اعظم من ان يفي بها عمر انسان ينقطع ،

او مسلك سلطان لا يطرد ، او قوة عصبية حضرية حمقاء تفور سريعاً او تغور سريعاً » . [1]

والكواكبي هنا يقدم ثلاث مبررات :

الاول : مقدرة المنظمة على تحقيق ما لا يستطيع تحقيقه الفرد ومقدرة المنظمة على الاستمرار .

الثاني : ان كل امر لا يتحقق الا بقـــوة وزمان متناسبين مع اهميته ، ومعنى هذا ان المنظمة هي التي ستقدم القوة المناسبة وستعين الزمن الملائم .

الثالث : ان قضيتنا لا يمكن ان يحلها انقطاع فرد . او استمرار سلطان . كما لا يمكن ان تحلها فورة عصبية حضرية (تفور سريعاً ، وتغور سريعاً) وهذا يؤكد رفض فورات المدن التي لا تستطيع ان تقدم الحـــل الحاسم .

ولقد دعم هذا بمبررين ثانويين :

الاول : ان يد الله مع الجماعة .

الثاني : ان هذا هو سر نشأة الأمم الغربية .

وهكذا فالتنظيم ضرورة منبعثة من صميم القضية العربية فاضية باستمرارها وانتصارها . ولقد جاء الدكتور الشميل فزاد في الاصرار على فكرة التنظيم واعتبر الحزب نشوءا طبيعيا أصيلا قال :

---

[1] ـــ الكواكبي حياته وآثاره صفحة ٩ نقلا عن كتاب الكواكبي «ام القرى» صفحة (١٢)

« فالحزب نشوء في الاجتماع ليس عارضا حتى يسهل استئصاله ، بل هو نشوء طبيعي جار على مقتضى نواميس طبيعية ولن ترى لنواميس الطبيعة تحويلا » . [1]

وهكذا ايضا ارتفع الشميل من اعتبار قضية التنظيم قضية مرتبطة بظروف معينة ، هي ظروف التحرر والبناء الى اعتبارها جزءا من حركة طبيعية مادية حتمية .

ان هذه الفترة فترة دعوة لذلك لم تعرف الا بالقليل من التنظيمات ولكنها — على ما يبدو — كانت تمهيدا لعهد التنظيمات الذي بدأ بالعقد الاول من القرن العشرين . *

---

١ — مجموعة الدكتور شبلي الشميل (١٩٣)

— من الجمعيات التي عرفت في هذا العهد جمعية حفظ حقوق الملة العربية التي تأسست سنة (١٨٨١) و (عصبة الوطن العربي) التي يرى بعضهم انها هي (الجمعية الوطنية العربية) وتأسست سنة ١٨٩٥ في باريس (العوامل الفعالة في الادب العربي الحديث ـ أنيس المقدسي) (٥٩ ـ ٦٠)

الاشتراكية والديمقراطية

٦

لا نستطيع ان نجد رأيا واضحا في الاشتراكية — في هذه الفترة — الا عند الدكتور شبلي الشميل ، على الرغم من هجوم عبد الرحمن الكواكبي على الاستغلال وعدائه الصريح له ، والشميل من المؤمنين بنظرية النشوء والارتقاء — كما بينت — فهو على هذا مادي في نظرته الى الأمور وفي تحليله لها ، وليس من الغريب ان يكون لفلسفة « ماركس » اثر في تفكيره ، والذي يرجح هذا الظن لديّ التقاء الشميل مع « ماركس » في القول بحتمية الاشتراكية والاعتقاد بأنها « نتيجة لازمة لمقدمات ثابته » .

يقول : « الاشتراكية كما يجب ان تكون ليس مذهبا فلسفيا اجتماعيا حتى يجوز لكل واحد ان ينظر اليها كما يشاء او كما يدله فهمه ، الاشتراكية نتيجة لازمة لمقدمات ثابته لا بد من الوصول اليها ولو بعد تذبذب طويل ،

الاشتراكية كالاجتماع نفسه ، ذات نواميس طبيعية تدعو اليها » . [1]

وهكذا فالاشتراكية قدر لا بد منه تقرره طبيعة مقدماته ، وهي بهذا ليست فلسفة فنذهب مذاهب شتى في فهمها ، انها حركة الطبيعة التي لا بد ان تتحقق مهما تعرج الطريق وطال ؟ .

ويرى الدكتور الشميل : « ان تطورها مرتبط بتقدم الانسان ، فكلما ارتقت مدارك الانسان وزاد اختباره زادت انتشارا واقتدارا » . [2]

ولكن ما هي الاشتراكية ؟

وما هي آثارها الاجتماعية ؟

وكيف تتحقق ؟

يقول الدكتور الشميل : ان الاشتراكية « لا تعلم اقتسام المال بل العدل في تقسيم المنفعة بين العمل ورأس المال » .

فهي اذن تضع حدا لاستغلال رأس المال فقط .

اما آثارها الاجتماعية بالنسبة لما تقدمه للانسان فهي « انها تريد ان تقلل من ويلاته فتضمن له حاجاته وتصون حقوقه بعد ان تفرض عليه واجباته وترفعه من تحت مواطىء الاقدام الى مكانه كانسان وتعلمه انه عضو من

---

١ ــ مجموعة الدكتور الشميل صفحه ١٨٣

٢ ــ » » ١٥٤

الاجتماع لا يجوز ان يبقى عالة عليه غير نافع وانه عامل فيه لا يجوز ان يبقى غير منتفع وان تبادل المنفعة ينبغي ان يكون على قدر العمل . » [1]

ولكن كيف يتحقق ذلك ؟

بالثورة ام بالتدرج ؟

كان رأي الشميل واضحا في هذه الناحية أيضا ، اذ انه أصر على ان النشوء هو القاعدة وان الثورة استثناء كثيرا ما يكون سيئا وان كان حسنا احيانا .

وكما اعتبر الثورة استثناء والنشوء قاعدة . وأصر على فكرة التدرج فقد اعتبر الحزب ضرورة حتمية منبثقة من نواميس الطبيعة ، فهو على هذا يعتبر ان الحزب هو اداة الثورة وان التدرج هو وسيلة هذا الحزب في تحقيق اهدافه ومن هذا نرى ان الشميل يلتقي مع « ماركس » في القول بحتمية الاشتراكية وبضرورة وجود الحزب ، بينما يختلف عنه بالقول بالتدرج كوسيلة لتحقيق اهداف الشعب وفي تحديد طبيعة هذه الأهداف .

ولكن ما هي اشتراكية الشميل حقا ؟

انها لا تعدو ان تكون « رأس مالية » ذلك العهد في نزعتها لتجاوز المستوى الذي وصلت اليه كما حدث في بريطانيا ، تحت تأثير ضغط الأحرار ثم العمال ، فيقول الشميل : « ان من يقابل بين حالة الشعوب

---

١ مجموعة الدكتور الشميل صفحة ١٥٣

الجرمانية من عهد غير بعيد ومـــا هي عليه اليوم من الاشتراكية العظمى .. الخ .. » [1] وهذا معناه ان الشعوب الجرمانية كانت تطبق الاشتراكية العظمى » في ذلك العهد ، وهو مالا يمكن ان يقبله التفكير الاشتراكي .

---

١ ـــ مجموعة الدكتور الشميل صفحة ٢٠٣

نقد الاشتراكية

٧

كان الدكتور الشميل يدعو للاشتراكية ولكنه اساء فهم الاشتراكية حتى اصبحت رأسمالية واعتبر الافغاني السوسيالست و « النهلست » و « الكومنيست » (الاجتماعيون والعدميون والاشتراكيون) حسب ترجمته — ماديين يشكلون خطرا ماحقا على بناء امهم [١] وقد ذهب جورجي زيدان الى « ان المبدأ الاشتراكي بجملته ليس من الامور المطابقة للطبيعة ولذلك فانه لن تقوم له قائمة » [٢] وعندما تكلم عن « سان سيمون » وعن روبرت اوين قرر : « انهما كانا يعملان عن هوس » [٣] . واذا كان زيدان لايبين البراهين التي جعلته يعتقد ما قرره فان فرح انطون يقدم هذه البراهين .

---

١ الدعوة الاسلامية والفكر المادي ، الباب الثاني من الفصل الثالث

٢ الهلال : المجلد الرابع ، جورجي زيدان (٢٩٣)

٣ » » » (٢٩٣)

يقول فرح انطون : «هذه هي اهم الاعتراضات على مذهب الاشتراكيين ومعنى ذلك ان الناس اذا اقيمت المساواة العامة بينهم بقيت مع ذلك هذه المساواة ناقصة اذ لا بد من السلطة والاعمال الصغيرة ، فمن يكون رئيسا للجميع ومن هو قادر على النهوض باعباء الرئاسة العامة ومن يرضى بأن يعمل الاعمال الصغيرة بازاء الاعمال الكبيرة التي يعملها جيرانه . فالامتياز اذا لا بد منه بين الناس تبعاً للقوى والمواهب . وانما الدواء الوحيد لازالة الضرر والفساد الحادثين في المدنية الحاضرة وهو تعميم التعليم الخ[1] ويبدو هنا أيضا — ان فرح انطون اوسع المثقفين العرب في ذلك الوقت كان يجهل معنى الاشتراكية ، فالاشتراكية في رأيه لا تبحث عن وسيلة لتحقيق تكافوء في الفرص ينهي مشكلة الفقر والتمايز الطبقي والمشاكل الأخرى المرتبطة بهما بل تبحث عن وسيلة لانهاء الفروق التكوينية بين البشر وجعلهم سواسية كأسنان المشط من حيث الكفاءه والتفكير . وهذا ما لا تقوله الاشتراكية .

---

١ الجامعة ، الجزء الثاني ، السنة الثانية فرح انطون (٤٧٥)

الباب الاول

من التناقضات الأساسية في حركة النهضة

النشوء والثورة

١

النشوء هو القاعدة اما الثورة فاستثناء سيء غالبا وان كان نافعا احيانا . هذا هـــو رأي اغلبية الرواد — كما بينت — ولكن هذه القاعدة المنطقية كانت احيانا تتعرض لخروج عليها يبدأ من الايمان بضرورة الاستيلاء عـــلى السلطة حتى ولو بالقوة ، بما يعنيه ذلك من خلع الأمراء والملوك وتقتيلهم واعلان العصيان على الاجنبي .

يبدو هنا اتجاهان — غير منفصلين طبعا — الأول يقول

بضرورة التربية أولا ومن دعاته الدكتور الشميل والاستاذ الامام ، وكان الاستاذ الامام متعلقا به حتى انه استنكر الثورة العرابية معتبرا اياها نوعا من الشغب قامت به عصابة جند [1] مخطئا الأفغاني في عمله من أجل خلع الحكام والثورة عليهم [2] معتبرا ان الذين «يرومون ان تكون بلادنا — وهي هي — كبلاد أوروبا — وهي هي — لا ينجحون في مقاصدهم ويضرون انفسهم بذهاب اتعابهم أدراج الرياح ويضرون البلاد بجعل المشرعات فيها على غير أساس صحيح فلا يمر زمن قريب الا وقد بطل المشروع ورجع الامر الى اسوأ مما كان » [3] اما الثاني ورائده الافغاني فقد كان يؤمن بضرورة التربية والتعليم ونشر الوعي ولكنه كان على استعداد دائم لانتهاز الفرص والاطاحة بنظم الحكم القائمة على اعتبار ان الاطاحة بها هي الوسيلة الوحيدة لايجاد نظم تقبل فكرة التقدم وقد اشترك الافغاني في اثارة ثورة التنباك في ايران سنة (١٨٩١) كما اشترك في خلع الخديوي اسماعيل آملا ان يكون توفيق أفضل منه .

وبين هذين الاتجاهين نشأ اتجاهان : الأول يقول بأن كلا من الطريقتين ضروري ولكن الثانية أسرع ، وهذا

---

١ تاريخ الاستاذ الامام ، محمد رشيد رضا ١٤٦

٢ » » » » ٩٧٧

٣ » » » »

ما أجاب به محمد رشيد رضا تلميذ الافغاني وعبده ، الاخير عندما خطأ طريقة الافغاني [1] . اما الثاني فهو اتجاه الذين بهرهم التمدن الاوروبي وأخذتهم قوة الدول المستعمرة ، فهم مؤمنون بفائدة الاستعمار لبلادنا المتأخرة غير مقتنعين بجدوى المقاومة معتبرين ان المسالمة هي طريق الخلاص وأن الاصلاح لا بد منه للحرية ، بينما كان يعتقد الاولون « ان الحرية اولا والاصلاح الداخلي آخرا » [2] وقد أجاب على هذا أيضا محمد رشيد رضا ذاهبا الى ان الاستعمار قد قاوم الطريقتين [3] وهذا امر طبيعي . وقد وصل حسن النية بأنصار هذا الاتجاه حدا جعلهم يعلنون صراحة ضرورة محاسنة الاستعمار وكسب ثقته والاعتراف بفضله ، « فالغاية التي نتمناها كلنا — أي انقضاء الاحتلال — تنال اذا سرنا اليها في طريقها . والسير اليها في طريقها يكون بأن نسعى كلنا ونجد في سبيل الاصلاح وترقية الأمة بالعلوم والمعارف وترقيتها على المبادىء الوطنية القويمة ، وهذه الطريقة يمكن ان نختصرها كثيرا اذا حاسنا المحتلين واستعنا بهم على اصلاح أحوالنا واكتسبنا ثقتهم بنا لان القوم لا يقصدون ان يجعلوا احتلالهم دائماً بل قد

---

١ تاريخ الاستاذ الامام ، محمد رشيد رضا ٩٧٧

٢ زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، احمد امين ٣٣٩

٣ تاريخ الاستاذ الامام ، محمد رشيد رضا ٩٧٧

وعدوا رسميا وكرروا الوعود مرارا عديدة بأنهم يجلون عن هذا القطر (اي مصر) متى وثقوا ان الجلاء نفسه لا يقلب النظام فيه ولا يعطل مصالحهم »[1] . وفي انتظار اعتقادهم بأن جلاءهم لا يقلب النظام ولا يضر بمصالحهم لا بد من الاعتراف « بان المحتلين أصلحوا في هذا القطر اصلاحا عظيما[2] » .

وهكذا يتطور هذا الاتجاه فيصبح دعايـة الاستعمار ودفاعا عن وجوده .

الاسلام ـ الشرق ـ العروبة

٢

كان تدفق الاستعمار والحضارة المادية على الشرق ـ يوقظ احساسا حارا بالدفاع عن الوجود ، ولمـا كان الاسلام من مقومات هذا الوجود ومن دواعي الوحدة فقد اتجه الاستعمار الى معاداة الاسلام وتسفيهه محاولا اثبات

---

١ المقتطف ، المجلد السادس والثلاثون ٢٦٠

٢ » » » ٢٦٥

عجزه الحضارى وعدم قابليته لمسايرة روح التقدم . وكانت مثل هذه المعاداة تستدعي « ردود فعل » ارتبطت بما يلى :

أ ـ الدعوة للالتفاف حول الخلافة ، رمز وحدة المسلمين وحاملة لواء الذود عنهم [1] الشيء الذي جعل كل محاولة للخروج على الخلافة خدمة للاستعمار وطعنة للاسلام . ، ان هذا استدعى تكتل المصلحين للدفاع عنها ـ على الرغم من المطالبة بالاصلاح ـ فالعروة الوثقى تأسست للعمل من أجل الوحدة الاسلامية تحت لواء الخلافة [2] والجامعة كان اسمها بادىء ذى بدء الجامعة العثمانية [3] والهلال سميت كذلك تبركا بالهلال العثماني [4] ومصطفى كامل كان من أشد المنافحين عن الخلافة ، والأفغاني عاش حينا في ظلها ، وعبده كان يرى انها سياج . ولم يكن يخالج الأحرار شك في ان الخلافة وحدها تستطيع الدفاع عن الاسلام ووحدة المسلمين فالاقطار الاسلامية لا تستطيع كل على حدة مواجهة هذا السيل الجارف . وباشتداد الهجمات الاستعمارية كان هذا الارتباط

---

١ على الرغم من انها تركت الجزائر لفرنسا لقمة سائغة وغيرها من البلاد العربية والاسلامية

٢ تاريخ الاستاذ الامام ، محمد رشيد رضا ٩١٢

٣ الجامعة العثمانية مجلة أصدرها فرح انطون في مصر

٤ الهلال افتتاحية العدد الاول

يقوى ويتحول من تعبير روتيني عن الولاء الى تعبير حي عن شعور الارتباط بالضرورة « فالسلطنة فاسدة ولكن بقاؤها سياج » [1] ، ولقد ظل تعلق المسلمين بالخلافة — كما بينت — حتى بعد انقلاب سنة (١٩٠٨) وبعد ما أعلن أنور باشابأن لا محل للجامعة الاسلامية في خطة جمعية الاتحاد والترقي [2] . ولكن فساد السلطنة — على الرغم من ذلك — والظلم الذي كان يمارسه ولاتها على الأقطار الواقعة تحت نفوذها . أوجد تيارا يدعو الى عودة الخلافة للعرب على ان تكون في مكة وأن يفصل بينها وبين السلطنة ومن هؤلاء عبد الرحمن الكواكبي وخليل غانم كما نتج عنه بالاضافة الى ذلك نوع من الاقليمية . وكان ذلك أشد ما يتجلى في مصر ام الدعوة للالتفاف حول الخلافة . ولقد عمد المؤمنون بالخلافة الداعون للالتفاف حولها الى الدعوة للاستقلال عنها داخليا . والغريب ان يكون من بين هؤلاء محمد عبده ومصطفى كامل . فمحمد عبده لا يرى دفع ضريبة الولاية للخلافة [3] وقد أعلن ذلك في قصيدته التي نظمها ابان توقيفه بعد الثورة العرابية حين قال « ونمنع الترك مفروضا نؤديه » .

---

١ تاريخ الاستاذ الامام ، محمد رشيد رضا ١٩٢

٢ المقتطف ، المجلد الثالث والثلاثون ٨١٥

٣ اصداء الدين في الشعر المصري الحديث ، سعد الدين الجيزاوي ١٧٥

٤ » » » » »

ب – الدفاع عن الاسلام لأنه من مقومات الوجود استلزم الدفاع عن الشرق كله . فالمسلمون يتعرضون للهجمات بمثل العنف الذي يتعرض له الشرق كله والاستعمار يقاوم الاسلام ولكنه لا يقاومه الا لانه حاجز بينه وبين أطماعه في الاستيلاء على الشرق . اذن فضرورة الدفاع عن الاسلام تعني الدفاع عن الشرق كله ، الشيء الذي أدى الى الجمع بين الرابطة الشرقية والرابطة الاسلامية ، وحتى ان كلمة الشرق في هذه الفترة كانت ملء الافواه . [1]

ج – الشرق يضم الكثير من الديانات والدعوة لاتحاد الشرق في وجه الغزو يعني بالضرورة الدعوة لاتحاد هذه الملل ، وهكذا فالدعوة للوحدة الاسلامية تصبح دعوة لوحدة الشرق ووحدة مله [2] ولكن هذه الدعوة لاتحاد الملل لم تؤثر في حدة الدعوة للوحدة الاسلامية فلقد اعتبر التعصب لها ضرورة يستلزمها الدفاع عن وجود الملة نفسها .

د – في الوقت الذي كان فيه بعض الرواد يعملون من أجل الرجوع بالاسلام الى أصوله بما يعنيه ذلك من ربط الدين بالدولة وتأسيس الدولة الدينية الاسلامية كان

---

١ تاريخ الاستاذ الامام ، محمد رشيد رضا ٢٨٩

٢ » » ٩١٨

آخرون يسفهون رجال الدين ويطالبون بفصل الدين عن الدولة وفصل الدين عن الفلسفة ، كان الاولون دعاة اصلاح يبدأ من الدين — كما بينت — ليشمل المجتمع كله انما بروح دينية ومن خلال منظارهم الذي اختاروه ، من خلال نظرة واضحة للاسلام تمتاز بالعمق والشمول ومن خلال موقف صريح من قضايا العصر الفكرية والسياسية والاجتماعية . وكان الآخرن دعاة اصلاح يبدأ بداية أخرى وكثيرا ما سفّه هؤلاء رجال الدين وبينوا ضررهم في ميدان التربية والتعليم والسياسة ولقد دعا الشدياق رجال الدين عندنا للاعتبار بما حدث لرجال الدين في فرنسا . انما حملة التسفيه هذه أصبحت فيما بعد دعوة لفصل الدين عن الدولة وفصل الدين عن الفلسفة — كما ذكرت — وكان يقصد من ذلك العمل لايجاد دولة مدنية حديثة تنبثق من تيارات الفكر الغربي وليس من الاسلام ، كما كان يقصد منه حصر نفوذ رجال الدين وفتح المجال امام العلم ليدخل ميدان الحياة . وقد زاد من حدة هذه الحملة مقاومة الأزهر ومقاومة الأكثرية الساحقة من رجال الدين للعلم والثقافة ومحاولتهم المحافظة على الخرافات والتقاليد البالية . ناقش ذلك كله بمنطق رجل الدين المتحرر محمد رشيد رضا في كتابه « محاورات بين المصلح والمقلد والوحدة الاسلامية » .

هـ ـ الاسلام والنصرانية بين العلم والمدنية * كان فرح انطون من طليعة المقاومين لرجال الدين ومن المؤمنين بضرورة فصل الدين عن الدولة والفلسفة ـ كما ذكرت ـ ولقد اتهم بأنه عزا التأخر في بلادنا الى طبيعة الاسلام نفسه ، فنشب جدال حاد حول طبيعة كل من الاسلام والنصرانية على صفحات الجامعة ـ وهي مجلة فرح انطون ـ والمنار ـ وهي مجلة محمد رشيد رضا ـ تلميذ محمد عبده وصديقه ـ ، حاول فرح أنطون ان يدلل على عداء الاسلام للفلسفة فاتخذ قصة ابن رشد مثالا ، ولكن الذي وقع فيه فرح انطون وقع فيه الاستاذ الامام أيضا اذ انه بين كيف اضطهدت النصرانية العلم والفلسفة ذاكرا عددا من الوقائع الصحيحة . وبعد ذلك تعرض لجوهر الدين المسيحي فحاول ان يثبت ما يلي :

---

* الاسلام والنصرانية بين العلم والمدنية :

كانت « الجامعة » مجلة فرح انطون قد اعتبرت أن ما عزي الى هناتو لم يقله ، وأن التحريف نتج عن ضعف في الترجمة . الجامعة الجزء الثاني ـ السنة الثانية ١١٥

« حاول فرح انطون ان يتجنب اعطاء رأي حاسم في مسألة تسامح كل من الديانتين مع الفلسفة وبعد ان ذكر آراء عديدة في الموضوع عاد فقال : « وفي ذلك دليل واقعي على أن النصرانية كانت اكثر تسامحا « دون ان يبحث عن الاسباب الموضوعية التي ادت الى التغلب على رجال الدين في اروبة وانتصار الفلسفة . ولقد اعتبر ان ارتباط السلطة الدينية بالمدنية في الاسلام كانت سبب تحكم بالفلسفة » الجامعة : الجزء الثامن ، السنة الثالثة ٥٣٩

أ ــ ان النصرانية تعتمد على الخوارق وأنها بذلك ضد العلم وذكر مثلا على ذلك ما جاء في الانجيل : « من كان عنده ذرة من الايمان وقال لهذا الجبل انتقل فينتقل» .[1]

ب ــ أن النصرانية فوضت السلطة للرؤساء (ما ربطتموه على الارض يكون مربوطاً في السماء وما حللتمون على الارض يكون محلولا في السماء » [2]

جـ ــ الزهد في الدنيا :

د ــ الايمان بغير المعقول والايمان ثم محاولة الفهم [3]

هـ ــ ان الكتاب المقدس حاو كل ما يحتاج اليه البشر في المعاش والمعاد [4] .

و ــ التفريق بين المسيحيين وغيرهم حتى الاقربين « ما جئت لالقي سلاما بل سيفا » [5]

وبعد هذا يقرر الاستاذ الامام أن الفصل بين السلطتين ــ المدنية والدينية ــ اذا أمكن يؤدي الى تنازع [6] وهكذا نرى أن المسألة عادت من جديد مسألة الدين والعلم والدولة .

ان مناقشات الاستاذ الامام شاملة واضحة ولكنها غير نزيهة ــ لعل ذلك راجع الى ان الاستاذ الامام طرف في

---

١ الاسلام والنصرانية بين العلم والمدنية ، محمد عبده ٢٢ ــ ٢٣

٢ » » » » ٢٣

٣ » » » » ٢٥

٤ » » » » ٢٦

٥ » » » » ٢٧

٦ ٤٢

النزاع — فالوقائع التي ذكرها والتي تدين المسيحية بمحاربتها للعلم صحيحة ولكن التاريخ الاسلامي حافل بمثلها هذا من جهة أما من الجهة الأخرى فان الاسلام يبدأ من النقطة التي تبدأ منها المسيحية وليس هنالك فرق بين جوهر الديانتين هذا بالاضافة الى ان الامام الشيخ محمد عبده أظهر عجزاً في فهم روح الدين المسيحي . لقد استدل من قول السيد المسيح « من كان عنده ذرة من الايمان وقال للجبل انتقل فينتقل » لقد استدل من هذا على اعتماد النصرانية على الخوارق والواقع ان المقصود غير هذا ، وأن المعنى اللفظي للكلمات غير مقصود وغير مقبول . القصد من ذلك اثبات مقدرة الايمان على صنع المعجزات ، وهذا موجود في الاسلام نفسه ويقبله الائمة والاستاذ الامام نفسه .

ان طرح المسألة على هذا الاساس وبهذا الشكل خطأ وقع فيه الطرفان لأن المسيحية كالاسلام في الجوهر ولأن لكل منهما تاريخاً حافلاً بالاخطاء التي لا تدين الا رجال الدين .

و — التآلف بين الاديان : في هذه الاثناء التي أخذت الدعوة فيها لوحدة الملل في الشرق تتبلور لترافقها دعوة للاتحاد الوطني [1] نشأت دعوة أخرى كانت اقل خطراً وأضأل أثراً في مجرى الاحداث هي الدعوة لتآلف

---

١ بحثت في فصل سابق

الاديان ، وعلى الرغم من موقف الامام محمد عبده من النصرانية — سبق ذكر ذلك — فقد كان من دعاة هذا التآلف وعلى الرغم من انني لا استطيع ان أحدد تاريخ كل من الموقفين ، فإنني أرى ان دعوته للتآلف تدل على موضوعية نقده للمسيحية وان جاء هذا النقد غير صحيح .

ان ما قرأته في هذا الباب ليس كثيراً لكنه واضح وهام وقد ورد كله في كتاب « تاريخ الاستاذ الامام » لمحمد رشيد رضا . يذكر المؤلف ان جمعية تأسست باسم جمعية « التأليف والتقريب » وهي جمعية سياسية سرية دينية مقصدها إزالة ضغط اوربا عن الشرقيين وتعريف الافرنج بحقيقة الاسلام ومن اعضائها ميرزا باقر — وهو فارسي تنصر ثم عاد لحظيرة الاسلام — والاستاذ الامام والقس « اسحق طيلر » أحد رجال الدين في لوندره والدكتور شمعون موريال وهو يهودي من حيفا [1] .

وليس فيما قرأته اية اشارة أخرى اليها ويبدو انها كانت قصيرة العمر قليلة الاثر .

هذه الدعوة للتآلف التي كان همها تعريف الافرنج بالاسلام صاحبها نشوء دعوة أخرى ناتجة عن وعي حقيقي للدين وعن شعور وطني بضرورة الالفة والتصافي : هذه الدعوة هي اعتبار الأديان جميعاً ذات جوهر واحد . وقد

---

١ تاريخ الاستاذ الامام ، محمد رشيد ٨١٩

أشار محمود ابو رية في كتابه « جمال الدين الافغـــاني » الى ان الافغاني كان يعتقد ان الاديان واحدة في المبـــدأ يكمل بعضها بعضاً وان كان من غير الممكن وحدة أهلها بسبب تكالب المنتفعين .

الباب الثاني

الدعوة الإسلامية والفكر المادي

٣

بالاضافة الى التناقضات التي كانت تعتمل في صميم الحركة العربية والتي تعود الى اختلاف التيارات الثقافية والسياسية العاملة فيها ، فان هناك تناقضاً اساسياً جديداً أخذ يتبلور بنتيجة تدفق الفكر المادي الغربي على الشرق .

ولقد بدأ الرواد من الائمة وغيرهم [١] يحذرون من مغبة الانسياق وراء مادية الغرب ، بما في ذلك علمه ، داعين الى ضرورة اخذ ما هو ملائم ومناسب لحياتنا ومجتمعنا ، يقول الشيخ الامام محمد عبده : « أما العلم

١ احمد فارس الشدياق

الذي نحن بحاجة اليه فيظن قوم انه علم الصناعة الخ .. وهذا ظن باطل ، فاننا لو رجعنا الى ما يشكوه كل منا نجد امراً وراء الجهل بالصناعات وما يتبعها [1] » .

والحقيقة هو أن هنالك أمراً وراء الجهل بالصناعات ، ولكن الشيخ الامام يرجع هذا الأمر طبعاً الى الانحراف عن الدين والانشغال بتوافه الحياة . ولا شك ان مثل هذا الكلام كان رداً على دعاة التصنيع ودعاة تقليد الغرب في طريقة حياته .

وعلى الرغم من عدم بروز هذا التناقض بروزاً علمياً في كتابات « الرواد » ، « الائمة » منهم وهواة الثقافة الغربيه ، وذلك لعدم تبلور الفكر عامة ، ولانحصار الجدال في قضايا أساسية من السهل الاتفاق عليها لا سيما اذا طرحت دون التفاصيل الا ان هذا التناقض برز بشكل واضح في كتاب للرائد جمال الدين الافغاني ، اسماه : « الرد على الدهريين » .

والكتاب كما هو واضح من عنوانه رد على دعاة الفكر المادي ، الذي يسميهم الافغاني « النيتشريين » وتحليل لاهدافهم وأساليبهم ، وفضح لمقاصدهم وكشف لمظاهرهم * .

---

١ رائد الفكر المصري – عثمان امين ٩٢

* (نيتشريين) مشتقة من كلمة (nature) الانكليزية والتي تعني الطبيعة .

مظاهر الماديين :

يقول الافغاني : « تخالفت مظاهر الماديين في الأمم والاجيال المختلفة فتخالفت أسماؤهم . فكانوا تارة يسمون أنفسهم بسمات الحكماء وينتحلون الحكيم لقباً لأفرادهم وأحياناً كانوا يتسمون بسمة دافع الظلم ورافع الجور ، وكثيراً ما تقدموا المسارح والانظار تحت لباس عرّاف الاسرار وكشف الحقائق والرموز الواصلين من كل ظاهر الى باطنه ومن كل بارز الى كامنه وقد كانوا يظهرون في أوقات بدعوى السعي في تطهير الاذهان من الخرافات وتنوير العقول بحقائق المعلومات ، وتارة يتمثلون في صور محبي الفقراء وحماة الضعفاء وطلاب خير المساكين وكثيراً ما تجرأوا على دعوى النبوءة ولكن لا على سنن سائر المتنبئين الكذبة ، كل ذلك توسلاً لاجراء مقاصدهم وترويج مفاسدهم [1] » .

مقاصد الماديين :

يقول الأفغاني : « وهذه الطائفة « النتشرية » تسعى لتقرير الاشتراك في المشتهيات ومحو حدود الامتياز ودرس

---

١ الرد على الدهريين — الافغاني ، ٢٩—٣٠

رسوم الاختصاص حتى لا يعلو أحد عن أحد ولا يرتفع شخص عن غيره في شيء ما ويعيش الناس كافة على حد التساوي لا يتفاوتون في حظوظهم . فان ظفرت هـذه الطائفة بنجاح في سعيها هذا ولاث هذا الفكر الخبيث في عقول البشر ، مالت النفوس الى الاخذ بالأسهل فلا تجد من متجشم مشاق الاعمال الصعبة ولا من يتعاطى الحرف الخسيسة طلباً للمساواة في الرفعة ، فان حصل ذلك اختل نظام المعيشة وتعطلت المعاملات وبطلت المبادلات وأفضى الى تدهور هذا النوع في هوة الهلاك [1] » .

أساليبهم وآثارهم :

يقول الافغاني : « كيفما ظهر الماديون وفي اية صورة تمثلوا وبين اي قوم تجمعوا كانوا صدمة جديدة على بناء قومهم وصاعقة مجتاحة لثمار أممهم وصدعاً متفاقماً في بنية جيلهم يميتون القلوب الحية بأقوالهم ويبثون السم في الارواح بآرائهم ويزعزعون راسخ النظام بمساعيهم فما رزئت بهم أمة ولا مني بشرهم جيل الا انتكست مثله وسقط عرشه وتبددت آثار الامة وفقدت قوامها ووجودها [2] » .

---

١ الرد على الدهريين ، الافغاني ٤٦

٢ « « ٢٩—٣٠

ان هذه الاقوال تعكس لنا رأياً واضحاً في الماديـــة ورداً متحمساً عليهـا . وواضح ان أسباب محاربته للمادية هي :

أولاً : انها تسعى لتقرير الاشتراك في المشتهيات ومحو حدود الامتياز ودرس رسوم الاختصاص حـــتى لا يعلو احد عن احد ولا يرتفع شخص عن غيره في شيء ما ويعيش الناس كافة على حـــد التساوي ولا يتفاوتون في حظوظهم » .

ثانياً : ان الماديين « كيفما ظهروا وفي ايـــة صورة تمثلوا وبين اي قوم تجمعوا كانوا صدمة شديدة على بناء قومهم وصاعقة مجتاحة لثمار أممهم وصدعاً متفاقماً في بنية جيلهم الخ .. »

ثالثاً : نبذ المادية لكل تكليف ديني وغرسها بذور الاباحة والاشتراك وزعمها ان الآداب الالهية جعليـــات خرافية وان الاديان مخترعات احدثها نقص العقل الانساني وجهرها بانكار الالوهية والتشنيع على الانبياء [1].

وهذه الاسباب كما هو واضح لا تستند الى نظـــرة علمية بمقدار ما تعتمد على ما أحيط به الفكر المادي وما يزال يحاط به من الدعاوى ، وعلى الرغم مما جاء فيها من بديهيات مثل موقف المادية من الدين الا انها لا تعدو ان تكون رد رجال الدين التقليدي الذى ما نزال نسمعـه

---

١ المرجع السابق ص (٦٣-٦٤) مع بعض التصرف .

حتى الآن :

ولسنا نستغرب اعتبار الافغاني او غيره المادية مسؤولة عن اشاعة الافكار غير الدينية او الداعية الى الاشتراكية والشيوعية ولكن الذي نستغربه هو اتهام الافغاني للمادية بدعوى انها المسؤولة عن اشعال نار الثورة الفرنسية وعن فساد الامة وتفكيكها [1] .

ولكن من هم هؤلاء الماديون ؟

يخصص الافغاني فصلاً في كتابه ليرد على هذا السؤال تحت عنوان « مطلب في السوسياليست (الاجتماعيون) والنهلست (العدميون) والكوميونست (الاشتراكيون)» [2]

وهكذا يبدو ان الذين قصدهم هم الاشتراكيون والفوضويون والشيوعيون الذين يجمل مقاصدهم فيما يلي :

« رفع الامتيازات الانسانية كافة وإباحة الكل للكل واشراك الكل في الكل [3] » والذين « يتهمهم بسفك الدماء وتخريب العمران وإثارة الفتن وإشاعة الفساد » « مصراً على انهم مهما تلونوا يلتقون في كل هذا ..

ان هذا الهجوم الشامل الساحق — كما يبدو — لا يستهدف الفكر المادي : لانه لو كان يستهدف الفكر

---

١ المرجع السابق ص (٦٤–٦٥)

٢ المرجع السابق ص (٦٧)

٣ المرجع السابق ص (٦٧)

المادي فقط لاستطاع ان يفرق بين السوسياليست (الاشتراكيون) والشيوعيين ، وبين النظرة المادية التاريخية وغيرهـــا من النظريات الاجتماعية ولكن رفضـــه للفكر الغربي الثوري عامة جعله يقف منه هذا الموقف الصارم .. الذي جـــاء رؤى من « الائمة » على نقلة الفكر الغربي من الماديين.

الباب الثاني ٤

الحضارة الغربية في البلاد العربية

كان جنود الاحتلال يروجون حضارتهم ، وكان طبيعيا ان تنشأ فئات طفيلية تعيش على بهارجها كما كان طبيعيا أن يهب المنافحون عن روح الحضارة العربية وتراثها بمقاومتها .

اما الفئة الأولى فهي فئة الحكام والمنتفعين ، التي عرفت من الحضاوة الغربية بهارجها فقط .

أما الفئة الثانية فهي فئة رجال الدين الاحرار التي كانت ترى في هذه الحضارة دمارا يجتث تراثنا من عروقه ، ويدمر أسس وجودنا .

وبينما كان بعض المنتفعين يعتبرون التغيرات التي تصحب

وجود جنود الاحتلال « اصلاحا عظيما » يجب الاعتراف به وتقديره كان هناك من يُنكر على الغرب تفوقه علينا ، الا في الصنائع والحرف المعاشية فقط » .

نستطيع ان نقدم فارس نمر ممثلا للرأي الأول وأحمد فارس الشدياق ممثلا للرأي الثاني ، ففارس نمر يتحدث في الدفاع عن وجهة نظره قائلا « انا احتلالي عـــلى رؤوس الأشهاد من أكثر الاحتلاليين لاني جاهرت وشهدت ولم أخف ولم أنكر أن المحتلين أصلحوا في هذا القطر اصلاحا عظيما » [1] أما احمد فارس الشدياق فيحكم على المدينة الغربية حكما صارما يصمها بالهمجية ، يقول : « وفي الجملة فاننا نرى في وجه هذا القرن الذي تزين بكثير من العلوم والاختراعات مـــا يشف عن الحالة الخلقية أعني الهمجية تلك البلاد المتمدنة ولا سيما ما يحدث فيهـــا من القتل والاغتيال والسلب والاختطاف والفتن والتغاوي » [2]

وهو على عكس فارس نمر كان يرى ان دخول ما يسمى الاصلاحات ليس الاضررا فادحا عـــلى بلادنا . فالتمدن يكون عند الذين ليس عندهم صنائع أنكى وأضر وأدهى وأمر [3]

---

١ المقتطف ، المجلد السادس والثلاثون ٢٦٥

٢ منتخبات الجوائب ، الجزء الأول ٤

٣ » » ١٠٦

ولقد كان هنالك تيار وسط بين الاثنين يدعو لاقتباس ما هو مناسب من الحضارة الغربية مع المحافظة على ما هو صالح من التراث القومي .

وكان الاستعمار يقف باستمرار مع عملائه ضد مكافحيه ، واصما اياهم بالرجعية والتعصب وهكذا أصبح الأفغاني في نظرهم مخربا خطراً ، وأصبح مصطفى كامل رجعيا [1]

ولهذا علق كرومر أبو الاستعمار في مصر آمالاً كبارا على حزب الامة واعتبره « الأمل الوحيد للوطنية المصرية في معناها العلمي الصحيح » [2] فحزب الامة هو حزب المثقفين الموالين للغرب العاملين على نشر حضارته ، الداعين لاقليمية مصرية .

وكانت هنالك بوادر تيار علماني ، ولكن هذا التيار ظل تيارا غير واضح المعالم ، غير محدد الاهداف ، انه رفض فقط ، ودعوة للهدم ، وكانت هذه الدعوة للهدم تتجه نحو الدين في كثير من الاحيان ، لما كان عليه رجال الدين من الجمود والرياء والتأخر .

وكان الشدياق من طلائع الذين كشفوا سيئات رجال الدين وجهلهم واحتيالهم ، أما فرح أنطون فقد اتجه اتجاها آخر يبدأ من اتهام الدين نفسه ، ولقد جاء هذا

---

١ اصداء الدين في الشعر المصري الحديث — سعد الدين الجيزاري ٢٠٣

٢ « « « ١٨٦

واضحا في قصيدته الرحبة التي نجتزيء منها ما يلي :

هل أنكر الشمس الجليلة في الضحى
وأقول خير الشرع شرع الفـــادي
أو شرع ذاك المرسل الغـــازي الذي
ملأ الورى قسطا وحسن ايـــادي
أو شرع ذاك الصالح المقطوع في
حرش يسائل ربـــه وينـــــادي
مات القديم فكفنوه فمـــا له
ما بيننا من عودة ومعـــــاد

---

* هنالك كتاب مؤلفه جورجي نقولا باز عنوانه « آفات المدنية الحاضرة » جعل الآفة الأولى من آفات المدنية اهمال الدين « ومن الآفات السكر والرقص والعقم والقمار والاحتكار الخ ... وقد بحث هذه المسائل وكأنها تصرفات » من الممكن معالجتها بالكشف عن اخطارها . وقد صدر الكتاب سنة ٩٠٤

الباب الثالث

نظرات في المرأة

يستطيع المطالع المتتبع ان يجد في كتابات المصلحين اهتماماً بمسألة المرأة يتحدد بما يلي :

اولا : الدعوة لتحرير المرأة : ونحن نجد هذا في كتابات رفاعة الطهطاوي كما نجده في كتابات الشدياق وقاسم أمين ، ولقد كان الشدياق يعتقد ان المجتمع يكتفي من التمدن بشطره لعدم مشاركة النساء [1] كما كان يعتقد ان « السراري والجواري من موانع التمدن » [2] . « وان المرأة اذا تعلمت القراءة والكتابه والحساب وشاركت الرجل في رأيه وهمه ومصلحته كان ذلك ادعي الى حملها

---

١ كنز الرغائب في منتجات الجوانب (الجزء الأول) الطبعة الأولى ١٠٧

٢ المرجع السابق ص ١٢٠

على محبته وصداقته والى ابتعادها عن خيانته وغشه »[1] ولم يكتف بذلك بل اعتبر « ان البطالة شر الرذائل ولا ولا سيما بطالة النساء »[2] وان الرجل تقل جدارته بمقدار ما عنده من النساء[3] ثم بين بعد ذلك محاسن الاختلاط[4]. ولقد جاء قاسم امين ليؤكد مثل هذه الآراء[5].

ثانيا : ان ما يطلب لهن في حدود الشرع : ويعتقد قاسم امين ان من اصول الشريعة السمحاء احترام المرأة والتسوية بينها وبين الرجل[6] وقد عاد آخرون مثل الشيخ الامام محمد عبده الى الشريعة السمحاء عندما ارادوا الدفاع عن المرأة[7].

ثالثا : الاعتقاد بأن المرأة أضعف تكوينيا من الرجل : ولقد حاول الدكتور الشميل اثبات ذلك علميا بمقارنة صفاتها وخصائصها بصفات الرجل وخصائصه[8] وجرت

---

١ المرجع السابق ص ١٢٢ .
٢ المرجع السابق ص ١٢٥ .
٣ المرجع السابق ص ١٠٤ .
٤ المرجع السابق ص ١٢٤ — ١٢٥ .
٥ تحرير المرأة — قاسم أمين ص ١٨ — ١٩ — ٥٢ .
٦ المرجع السابق ص ١١ .
٧ تاريخ الاستاذ الامام — محمد رشيد رضا .
٨ المقتطف — الدكتور شبلي الشميل ومجموعة الدكتور الشميل

مناقشات في الموضوع على صفحات الهلال * اشترك فيها مردم انطاكي والدكتور امين الخوري وكان مما جاء في هذه المناقشات « ان المرأة أحط من الرجل وستبقى » [1] وأنها « ضعيفة جسدا وعقلا » [2] وحاول بعضهم الاستدلال على ذلك بتتبع آراء الفلاسفة والاديان [3] وكان الوحيد الذي اعتبرها مساوية للرجل دون ان يلجأ الى مثل هذه الاعتبارات قاسم امين فهو يراها « انسانا مثل الرجل لا تختلف عنه في الاعضاء ووظائفها ولا في الاحساس ولا في الفكر ولا في كل ما تقتضيه حقيقة الانسان من حيث هو انسان اللهم الاّ بقدر ما يستدعيه اختلافهـا في الصنف » . [4] وقد رفض هذا الرأي فرح انطون مقدما رأي الفيلسوف جول سيمون .

رابعا : القليل من الثقافة والتحرر : فالمصلحون الذين كانوا يتناقشون حول حرية المرأة ومساواتها بالرجل والذين كانوا يعتبرونها أضعف في الغالب لم يطلبوا للمرأة الاّ القليل من الثقافة والتحرر وعلى الرغم من ان قاسم

---

* وكانت سبقتها مناقشات على صفحات المقتطف اشترك فيها الدكتور الشميل

١ الهلال – المجلد الثاني ص ٥٣٢ – ٥٣٣ .

٢ المرجع السابق ص ٤٦٣ – ٤٧٠ .

٣ المرجع السابق

امين مثلا قد ربط بين حالة المرأة وما عليه الحكم من استبداد [1] ثم القى التبعة على الرجل [2] لانه لم يقم بواجب تربيتها ولانه أعفاها من اول واجب عليها وهو التأهل لكسب ضروريات الحياة بنفسها مما ادى الى ضياع حقوقها [3] على الرغم من كل ذلك فانه لم يطلب لها الا المساواة مع الرجل في التعليم الابتدائي فقط اما ما زاد على ذلك فغير ضروري [4] كما انه لم يطلب لها رفع الحجاب « ، بل اعتبره أصلا من أصول الأدب التي يلزم التمسك بها » [5] . وتوالى المصلحون في بحث مشكلة المرأة ولكن رأي رفاعة الطهطاوي لم يختلف عن رأي فرح انطون في ان المرأة للبيت ، وكان موضوع دعوتهم لتحريرها لا يتعدى ما نظمه شعرا حافظ ابراهيم في قصيدته التي يقول منها :

انا لا أقول دعوا النساء سوافرا
بين الرجال يجسن في الاسواق [6]

خامسا : كان نقولا حداد يعتقد ان المرأة يجب ان

---

١ تحرير المرأة – قاسم أمين والجامعة – الجزء العاشر – السنة الثانية ١٧ .
٢ المرجع السابق ص ١٣ .
٣ المرجع السابق ص ٢٥ و ٤٨ .
٤ المرجع السابق ص ٢٤ .
٥ المرجع السابق ص ٤٥ .
٦ المرجع السابق ص ٥٥ .

تختص بسياسة البيت على ان يفسح لها المجال للعمـــل في الميادين المتعلقة بها كالزواج والطلاق والميراث الخ . يقول في ذلك : « ومع ذلك هب انه امكن اعفاء المرأة من العمل باصلاح يرد الهيئة الاجتماعية الى حالتها الطبيعية التي تخصص فيها المرأة لسياسة المنزل والرجل لتحصيل الرزق فلا يسقط حق المرأة من التدخل في الحكم الذاتي سقوطا مطلقا بل يبقى لها حق في التداخل ببعض أجزائه لان لها مصالح مستقلة من طبعها كمسائل الزواج والطلاق والميراث والمعاملات الزوجية والتعليم والتربية وغير ذلك ممـــا فيه للمرأة مصالح جوهرية أصيلة وطبيعية فهذه الامور يجب ان يكون للمرأة في تشريعها وادارتها يد » [1] . وبعد ان يقرر نقولا حداد مثل هذا الرأي يترك الكيفية التي يتحقق بها دون ايضاح . ولكن تحديد ميدان عمل المرأة يرتبط بشيئين الاول : اعفاء المرأة من العمل لتحصيل الرزق والثاني : اصلاح الانظمة الاجتماعية بحيث تغني المرأة عن العمل فاذا لم يتم شيء من ذلك فالمرأة التي تعمل لها كل حقوق الرجال [2] . وعلى الرغم من ذلك فهو يعتقد : ان نزول المرأة الى ساحة العمل ضار بالعمران لا محالة فاذا امكن اعفاؤها منه باصلاح النظام الاجتماعي فعادت

---

١ مختارات من فرح أنطون – البستاني .

٢ الجامعة – الجزء السادس السنة السادسة فرح أنطون ١٦٦ .

الى عرش منزلها لم يبق ثمة موجب لتداخلها بالأحكام الذاتية الا فيما يتعلق بأحوالها الشخصية الطبيعية التي سبق ذكرها [1] .

سادسا : اما اديب اسحق فكان يرى : أن المرأة مساوية للرجل ولكنها غير الرجل فرفعها الى المقام الذي تستحق لا يكون مماثلتها للرجل فان ذلك مفسد لطبيعتها مغاير لخلقها وانما يحصل بانمائها وتقديمها باستمرار [2] من جهة أنها امرأة بحيث توجد المساواة مع الفارق » [3] .

ويبدو ان مسألة تحرير المرأة كانت تلقى تأييداً في الأوساط الارستقراطية والمثقفة [4] ولكن الرأي العام كان بعيداً عن قبول هذه الدعوة . وأجمل ما كتب في الموضوع تعليق حافظ ابراهيم على كتاب قاسم أمين « المرأة الجديدة» يقول حافظ :

أقاسم ان القوم ماتت قلوبهم
ولم يفقهوا في السفر ما انت كاتبه
الى اليوم لم يرفع حجاب نسائهم
فمن ذا تناديه ومن ذا تخاطبه
فلو ان شخصاً قام يدعو رجالهم
لوضع نقاب لاستقامت رغائبه

---

١ المرجع السابق ص ١٦٦ .
٢ المرجع السابق ص ١٦٨ .
٣ أديب اسحق – الدرر – (٢٩٥ – ٢٩٩) ٢٩٩ .
٤ الجامعة – الجزء العاشر – السنة الثانية ص ٦٤٠ .

ولو خطرت في مصر حواء امنا
يلوح محياها لنـــــــا ونراقبه
وفي يدها العذراء يسفر وجهها
تصافح منا من ترى وتخاطبه
وخلفها موسى وعيسى وأحمد
وجيش من الاملاك ماجت مواكبه
وقالوا لنا رفع الحجاب محلل
نقلنا نعم حق ولكن نجانبه [1]

ولقد كانت حالة المرأة مزرية في هذه المرحلة . وفي احصائية يقدمها قاسم أمين عن وضع الطلاق والزواج في الاقليم المصري للسنوات الاخيرة من القرن التـاسع عشر والاولى من القرن العشرين يبـدو في سنوات كثيرة ان حالات الطلاق أكثر من حالات الزواج . [2] .

وعلى الرغم من ذلك فان حركة النهضة رافقها (وعي نسائي) . فصدر عدد من (الصحف النسائية) في اواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . وقبـل نهاية العقد الثاني من القرن العشرين اشتركت النساء في مظاهرات ضد الاحتلال البريطاني في مصر . *

---

١ المرجع السابق ص ٦٤٠ .
٢ تحرير المرأة – قاسم أمين .
* الآداب العربية في الربع الأول من القرن العشرين – لويس شيخو اليسوعي ، صفحة ٨ : «وقد كانت النهضة الأدبية في بدء القرن العشرين تتصل=

سأيضاً بالجنس اللطيف، فان فئة من السيدات حاولن كتابة فصول أدبية شعرية ونثرية في الجرائد السيارة في أواخر القرن التاسع عشر كمريانا مراش وورد اليازجي ووردة الترك . بيد اننا لم نطلع على جريدة أو مجلة نلن لها الامتياز باسمهن قبل القرن العشرين غير مجلة « الفتاة » التي ظهرت في مصر في ٢٠ نوفمبر من سنة ١٨٩٢ لصاحبة امتيازها هند نوفل ، ثم مجلة « المرأة الحسناء » للسيدة مريم مزهر كان أول صدورها في مصر في سنة سنة ١٨٩٦ ، ثم مجلة « أنيس الجليس » لألكسندرا افيرينوه ظهر أول اعدادها في غزة كانون الثاني ١٨٩٨ . وتبعها في الحقبة التي نحن بصددها مجلة « السيدات والبنات » للسيدة ماري فرح نشرتها أيضاً في الأسكندرية في أول أبريل سنة ١٩٠٣ ، ثم « فتاة الشرق » للسيدة لبيبة هاشم سنة ١٩٠٦ في مصر وهي لا تزال ثابتة إلى الآن .

وقد حاولت أن أجد في مجلة « السيدات والبنات » وعياً نسائياً خاصاً يحاول أن يتعدى الحدود التي وضعها الرجال ولكني لم أجد إلا التزاماً بالآراء السابقة الذكر ، آراء نقولا حداد وفرح انطون . ولقد استطعت أن ألاحظ ما يلي عندما راجعت أعداد السنوات الثلاث الأولى (١٩٠٣ – ١٩٠٦) :

أولا : ان المجلة كانت تعتمد في مقالاتها الرئيسية التوجيهية على ما يكتبه فرح أنطون ثم نقولا حداد بعد سفر فرح انطون إلى نيويورك .

ثانياً : ان المجلة كانت في أبوابها الرئيسية تبحث مسألة العادات الذميمة والمطبخ وصحة الطفل الخ ... ولم تكن تتعدى هذا لبحث أساس مشكلة المرأة .

ثالثاً : كان رأي روز انطون صاحبة المجلة في منزلة المرأة الاجتماعية لا يخرج عن نطاق الآراء التي أوردناها فيما سبق ، فهي ترى « ان البطالة تصدي القلوب »(٦٥ – السنة الثانية) ثم تقول : « هذا هو مرضنا نحن السيدات جعلنا للعمل ولا نعمل فنحن نخسر أنفسنا ؛ وما المعنى من كلمة نعمل هل معناها النزول لمصاف الرجال ومزاحمتهم على الاعمال كما يتوهم البعض ، كلا فإنه يمكننا ن نعمل ضمن دائرتنا بدون أن نتعداها مهما كانت طبيعتنا ومنزلتنا » (٦٦ – السنة الثانية) .

الباب الاول

حركات الإصلاح في الأمبراطورية العثمانية

١

« بدأ الاصلاح في الامبراطورية في حياة السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ ــ ١٨٠٩) مع بداية القرن الثامن عشر . وقد بدأ الاصلاح بوضع « النظام الجديد » للجيش ، هذا النظام الذي أدى الى استياء الانكشارية وخلع السلطان سنة (١٨٠٧) . « وقد كان ثمة رغبة في ان تفيد الامبراطورية من تلك المؤسسات التي كانت تعتبر أساساً لتقدم الشعوب الأوروبية وامتيازها » [١] وبما ان الانكشارية كانوا قد

---

١ تاريخ الشعوب الاسلامية (٤) الاسلام ــ كارل بروكلمان ص ٤ .

اصبحوا « بلاء الدولة » كما يقول بروكلمان كان لا بد من وجود قوة تحمي الدولة من الاخطاء الداهمة .

* حاول محمود الثاني ان يكمل ما بدأه سليم الثالث فأصدر أمره بأنشاء « جيش نظامي جديد » سمي « الحرس المدرب » [1] ولقد كان المدربون من مصر . وعندما اراد عرض الجيش شق الانكشارية عصا الطاعة فابيدوا عن آخرهم ، ولكن الحروب والثورات حالت دون اتمام الاصلاح .

* جاء بعده ابنه عبد المجيد فأتمّ ما بدأه ابوه واعلن سنة ١٨٣٩ فرمان الاصلاح (كل خانه) . وناط المهمة بمصطفى رشيد باشا المصلح العثماني المشهور . « وعد السلطان ، في هذه الوثيقة ، جميع رعاياه ، على اختلاف أجناسهم وأديانهم بصيانة أرواحهم وشرفهم وممتلكاتهم ، وبتوزيع نزيه وعادل للضرائب ، في حين وعد المسلمين على الخصوص بتعديل الخدمة العسكرية وبقصر مدتها على أربع او خمس سنوات » [2] .

* اعلن عبد المجيد الخط الهمايوني الثاني سنة ١٨٥٦ مؤكداً على ما جاء به الخط الشريف الاول ؛ ومساوياً بين الرعايا العثمانيين صدر هذا « الخط » نتيجة لضغط

---

١ تاريخ الشعوب الاسلامية (٤) الاسلام – كارل بروكلمان ص ٧ .

٢ تاريخ الشعوب الاسلامية (٤) الاسلام – كارل بروكلمان ص ٢٤ .

الدول الكبرى فلم يتقبله أحد بحماسة .

« صدرت في عهد عبد العزيز صحيفتان هما « المخبر » و « حريت » وكانتا تبثان روح الاصلاح .

« تمكن المصلحون بقيادة مدحت باشا من خلع عبد العزيز والمجيء بمراد ثم من خلع مراد والمجيء بعبد الحميد. عين عبد الحميد مدحت باشا صدراً أعظم فأخذ يعمل من أجل تطبيق آرائه وكان العمل الجليل الاول الذي قام به هو اصدار القانون الاساسي سنة (١٨٧٦) . وأهم ما جاء في القانون الاساسي :

١ — المساواة بين الرعية على مختلف المذاهب والأديان

٢ — حرية التعليم على ان يكون اجبـــارياً وحرية المطبوعات (في حدود القانون)

٣ — الغاء السخرة ومنع المصادرة والتعـــذيب (المواد ٢٤ و٢٦) [١]

٤ــالأمن على المال والملك وحرمة المساكن (المواد ٢١و٢٢)

وقد نص الدستور ايضاً على ان : « الدولة العثمانية تحتوي على الممالك والقطع الحاضرة وعلى الايالات الممتازة وجميعها جسم واحد لا يمكن تفريقه او تجزئته بوقت من الأوقات او بسبب من الأسباب (مادة ١) كما نص على

---

١ — مذكرات البارودي ، فخري البارودي

وقد نشر نص « القانون الأساسي » في « كنز الرغائب » من منتخبات مجلة الجوائب — الجزء الخاص بالارادات السنية والقوانين (المجلد السادس) .

« ان حضرة السلطان حسب الخلافة هو الحامي لدين الاسلام وهو ملك جميع التبعة العثمانية وسلطانها . (مادة ٤)

« اجتمع مجلس « المبعوثان » واستغلت كثرة الخلافات فيه فحل .

« تكونت « تركيا الفتاة » في سويسرا خلال حكم عبد العزيز — على ما يعتقد — ولكنها لم تبرز إلاّ سنة ١٨٩١ ولم تكن منظمة واضحة المقاصد ولكنها كانت تشن حملات شديدة على الجور والطغيان .

« تكونت جمعية (الاتحاد والترقي) سنة ١٩٠٤ بعد فشل الأولى في القيام بمهمتها ، وبعد ان انشأت خلايا في الجيش طالبت باعادة دستور سنة (١٨٧٦) فلم يكن من عبد الحميد الا ان وافق ولكنه عاد فشجع الرجعية على التآمر لالغاء الدستور وكانت المؤامرة المعروفة . ولكن استعداد الجيش فوت عليه الفرصة وأدى الى خلعه سنة (١٩٠٩) » [١] .

« بدأت مع النصف الثاني من القرن التاسع عشر حركة أدبية سعت الى تحرير اللغة من التكلف وربط الأدب بالشعب ، ولمعت اسماء منها ابراهيم شنامي صاحب جريدة

---

١ تختلف وجهة نظر بروكلمان عن وجهة نظر « الجامعة » في مسألة جماعة الاتحاد والترقي ، فالجامعة ترى أن « الاتحاد والترقي » غير « تركيا الفتاة » بينما يرى بروكلمان أن جماعة « تركيا الفتاة » من المتآمرين دعو أنفسهم « جمعية الاتحاد والترقي » . والأرجح أن بقايا « تركيا الفتاة » قد انضموا أو اشتركوا في تكوين جمعية « الاتحاد والترقي » . بروكلمان (٧٨ — ٧٩ — ٨٠) .

« ترجمان احوال » وجريدة « تصوير افكار » . ونامق كمال وعبد الحق حامد وخالد ضيا وبدأت مع هؤلاء بذور الفكر القومي التركي تنمو .

« وكثيراً ما كانت مثل هذه الاصلاحات تلقى التأييد والثناء ويهاجم منتقدوها . يقول فرح انطون في مقال له يتناول فيه موقف الفئات المختلفة من الاصلاح : « الفئة الثانية ترى كل حسن حسنا وتثني على كل اصلاح تأتيه الحكومه وان كان صغيراً لأنها تعلم ان الطفرة محال ولا تجهل الصعوبات التي تعترض عادة كل تغيير » [1] مؤكداً انه من هذه الفئة . ولكنها كلها — الاصلاحات — كانت بلا جذور تفرضها ظروف خارجية أو ضغط من الداخل فلا تعدو ان تكون « حبراً على ورق » .

---

١ الجامعة — الجزء الخامس — السنة الثانية — فرح انطون (٢٤٦) .

« اعتمدت في كتابة هذا الموجز على كارل بروكلمان في كتابه تاريخ الشعوب الاسلامية (٤) الاسلام ، وعلى ما كتبته مجلة « الجامعة » ، الجزء الثامن السنة السادسة (٢٢٥) . (سلسلة مقالات) بقلم نقولا حداد .

الدستور والردة

١

جاء دستور سنة ١٩٠٨ تحقيقاً لمذاهب ناضل في سبيله المتنورون مدة طويلة فكانت فرحة العرب — وهم المظلومون — عظيمة به .

يقول فخري البارودي في وصف وقع اعلانه : «فقامت القيامة وخرج المنادون في الاسواق باعلان الدستور والحرية والمساواة والعدالة ، وأقيمت الزينات ، وراح الناس يهتفون مع الهاتفين دون أن يفهموا شيئاً مما جرى » [١]

ولقد اعتبر المتنورون العرب اعلان الدستور وسيلة لرأب الصدع واصلاح ما فات يقول محمد كردعلي : « نكتب هذا وقد خنس شيطان التفريق بين عناصر الدولة واهل

---

١ مذكرات البارودي ، فخري البارودي (الجزء الاول) (٦٠)

النحل المختلفة فيها بعد أن وسوس القرون بينهم وغدا المسلم وغيره بل والتركي ومواطنه سواء في الحقوق مع مواطنه لا يمتاز عربي عن عجمي الا بالعمل الصالح ولا مسلم عن ذمي الا بما ينفع البلاد » [1] ولكن هذه الحالة من الرضا الغامر كانت عابرة ، فالجيش هو الذي أعاد الدستور وجمعية الاتحاد والترقي الناشئة المتسلطة بدون حنكة أصرت على أن تحكم البلاد حكماً مركزياً تعسفياً طورانياً . وبعد صراع عنيف مع السلطان عبد الحميد وصراع أقل عنفاً مع حزب « الحرية والائتلاف » الذي أيده النواب العرب فيما بعد تمت السيطرة النهائية لحزب « الاتحاد والترقي » . وقد حاول بعض المفكرين ان يوجد مبرراً لتدخل الجيش « فالجنود نواب الشعب وفوزهم في هذا التنازع فوز للشعب » [2] . وعلى الرغم من ذلك « فالطريقة التي تم بها الفوز ليست الا صورة اعتصاب شعب في طلب حقه بالدستور ونيله وان لم تكن طريقة شرعية » [3] ونتيجة لتخمر الوعي ووضوح ملامحه فقد كان هنالك شعور بأن ما تم ليس هو المطلوب وان الثورة السياسية لا تحل المشاكل المعلقة بل لا بد من « ثورة أفكار وأخلاق

---

١ المقتبس – المجلد الثالث – الجزء الثاني عشر محمد كردعلي ٧٧٣

٢ الجامعة – الجزء التاسع – السنة السادسة – كاتب المقال نقولا حداد ٢٥٤

٣ » » » » ٢٥٤

وآداب وأديان » [1] . وقد أدى هذا الى اعتبار الحرية مسئولية شخصية فوق الدستور والى القول بأنها ليست من فضل الدستور ولا من مكارم أخلاق الأتراك ، انهـا من الله [2] .

ويصح هذه المرة أيضاً أن يقال في الدستور ومجلس «المبعوثان» ما قاله أديب اسحق عند الغاء مجلس «المبعوثان» الأول لسنة ١٨٧٨ « مجلس لم تنشئه ثورة الخواطر ولم تؤيده ارادة الأمة ولم يؤلفه الرأي العام وانما كان منشأه القصد الذاتي وعماده الارادة المفردة ومصدره آراء الزعماء فما ظهر حتى اختفى وما بني حتى عفا » [3] . ولهذا السبب حدثت الردة بعد أشهر من انقلاب سنة ١٩٠٨ . فقـد ألف رجال الدين مع الحاشية المبعدة بتشجيع من السلطان عبد الحميد « الجمعية المحمدية » التي استمالت العوام وبعض الضباط في الجيش واستطاعت بعد ذلك أن تلغي الدستور . ولكن عناصر حزب « الاتحاد والترقي » عادت فاسترجعت السلطة . وكان هذا الرجوع غير مؤيد بوعي شعبي يسنده ممـا أدى أخيراً الى افلاس الشعارات التي أعلنها انقلاب سنة ١٩٠٨ .

---

١ الريحانيات ـ الجزء الثالث ـ الثورة الحقيقية ٨٣

٢ » » » ٨٣

٣ الدرر ـ اديب اسحق ١٤٩

ومذكرات البارودي ـ فخري البارودي ـ (الجزء الاول) ٧٨

ولقد كان العوام أعداء الاصلاح [1] بدل أن يكونوا مؤيديه وكان الأحرار في واد والشعب في واد . ولم يكن حزب « الاتحاد والترقي » يدرك الوسيلة التي من الممكن أن تجمع عناصر الامبراطورية العثمانية . انتهت الخلافة الدينية بخلع السلطان وفشلت شعارات الحرية والمساواة والعدالة والاخاء — التي كانت بلا رصيد عملي — في اقناع العرب خاصة بالاستمرار على الولاء للجامعة العثمانية ، كما فشلت في اقناع أحرار الترك بمعاملة العرب على أنهم شركاء . وكانت النتيجة السياسية التعسفية التي سلكها الاتحاديون والمشانق التي أقاموها في دمشق وبيروت لأحرار العرب .

---

١ مذكرات البارودي فخري البارودي (الجزء الأول) (٧٠ و ٧١ و ٧٢)

الباب الثاني

الدعوة للعروبة

١

بينا فيما مضى أن التيار الاسلامي كان أقوى الاتجاهات جميعاً وعلى الرغم من قوة هذا التيار فقد ظهرت موجات عربية محاولة تجاوزه . ويرجع السبب في اعتقادي الى شعور بعض المفكرين بأن اتحاد الشرق أو اتحاد المسلمين غير ممكن في الظروف القائمة آنذاك واذا كان الأمر كذلك فلماذا لا يتحد العرب لمقاومة الاستعمار المتدفق ؟ كان اديب اسحق أوّل داعٍ شعر بأن اتحاد الشرق غير ممكن فدعا العرب الى الاتحاد في وجه الغزو الاستعماري ، يقول اديب اسحق : « والاّ فما للحجاز محجوز الانوار وما للشام مشئوم الاحوال ولمصر مقرونة الطالع بالعسر وما

للعراق مؤذن العز بالفرات وما لحلب متوالية النوب وما لليمن فاقد اليمن وما لتونس عديمة الأنس وما للغرب منهمل الغرب : —

ألم يكن في كل هذه الاقطار نفر من أولي العزم تبعثهم الغيرة والحمية على جمع الكلمة العربية فيتلافون احوالها قبل التلاف متظاهرين كالبناء المرصوص أو كصخور تلاحمت فصار ركامها جبلا حصيناً لا تؤثر فيه العواصف ولا تضعفه الزلازل » [1]

وسأل مرة محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار استاذه الشيخ الامام محمد عبده عن العرب فأجابه — بعد أن ذكر فضائلهم — « لقد سلبهم الترك كل شيء » [2] دون أن يزيد على ذلك .

أما محمد كردعلي صاحب « المقتبس » فانه في دراسة له بعنوان حالتنا العلمية والاجتماعية يقول : « هذه حال البلاد التي يتكلم أهلها العربية بقي السودان وزنجبار وحالها حال سائر البلاد العربية وأضعف .. الخ . ثم يقول : واذا أحصيت العرب لا تراهم يقلون عن خمسين مليوناً ولو قست حالهم العلمية والمادية بأصغر الشعوب الاوروبية كالبلجيك أو هـــولنده أو سويسرا لبكيت وانتحبت .

---

١ الدرر أديب اسحق — الشرق سنة (١٨٨٠) تقريباً .

٢ تاريخ الاستاذ الامام — محمد رشيد رضا .

الخ »[1] .

تظهر من كل ذلك روح عربية ، وتبدو فيه ملامح اتجاه واضح . اخذ يزداد وضوحاً فيما بعد

---

١ المقتبس – المجلد الثاني – الجزء الثاني عشر سنة (١٩٠٨) ص ٦٢٣

* امتازت هذه الفترة بالحديث عن التكوين القومي للامبراطورية العثمانية وذكر العناصر المؤلفة لها . من ذلك ما قاله سليم تقلا في الاشارة إلى هذه العناصر « إن في ممالكها المحروسة عناصر عديدة تركية وعربية وأرمنية ويونانية وغيره » (العوامل الفعالة في الادب العربي الحديث – أنيس المقدسي ص ٥) ، ويبدو أن هذا التمييز هو الذي أدى إلى المطالبة باللامركزية فيما بعد .

مراحل النضال العربي

٢

١ ــ مر النضال العربي بمراحــل ثلاث من حيث شعاراته

المرحلة الاولى ــ مرحلة الدعوة للتساوي مع الاتراك .

المرحلة الثانية ــ مرحلة الدعوة لنظام لامركزي أو اتحادي *

المرحلة الثالثة ــ مرحلة الدعوة ثم النضال من أجــل الاستقلال .

ان هــذا التقسيم لا يعني مراحل زمنية ذات حدود معينة . فالنضال العربي ابتــدأ فعلا بالدعوة للمساواة ولكنه ظل مدة من الزمن يطرح اللامركزية والاتحــاد الفيدرالي في الوقت ذاته كوسيلة لتحقيق المساواة الفعلية

* كان البرنس صباح الدين أول من دعا إلى النظام اللامركزي على المستوى العثماني ــ البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ١٠٦ .

والاصلاح اللازم . ولم يطرح شعار الانفصال جدياً الا باعلان ثورة الشريف حسين : فثورة الشريف حسين تشكل حداً زمنياً فاصلا بين عهدين .

مثل الدعوة لنظام اللامركزية حزب اللامركزية الذي تأسس سنة ١٩١٢ في القاهرة وحزب العربية الفتاة الذي تأسس في باريس سنة ١٩١١ والمؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس سنة ١٩١٣ .

ومثل الدعوة للاتحاد الفيدرالي حزب العهد الذي تأسس سنة ١٩١٣ في القسطنطينية والذي كان حزباً سرياً للعسكريين من العرب بقيادة عزيز المصري . وقد استلهم هذا الحزب اتحاد المجر مع النمسا .

بالطبع لم يكن ممكناً قبل سنة ١٩٠٨ غير رفع شعار المساواة والاصلاح ولكن اعلان الدستور جعل من الممكن اعلان آراء في شكل الدولة والمطالبة بحقوق العرب فيها . ولكن لماذا لم تخرج الدعوة عن حدود اللامركزية حتى اعلان الثورة العربية الاولى ؟ هنالك اربعة أسباب فيما اعتقد :

الاول — عدم وضوح الفكر القومي .

الثاني — نتجت الدعوة لنظام اللامركزية عن الدعوة للاصلاح باعتبار اللامركزية وسيلة للاصلاح الحقيقي على المستوى العثماني . على الرغم من اننا لا يمكن ان ننفي الدوافع القومية عند دعاة اللامركزية .

الثالث ـ كان السلطان خليفة المسلمين وكانت فكرة الخلافة والدولة الاسلامية تتمتع بأثر فذ في جميع الاوساط العربية خاصة .

الرابع ـ اعتبار الخلافة والرابطة العثمانية سياج يحمي الاقطـــار العربية والدول الاسلامية من الوقوع في براثن الاستعمار . لعدم مقدرة كل من هذه الاقطار على الدفاع عن نفسه منفرداً .

ولكن الثورة العربية الاولى جرفت دعاة اللامركزية والاتحاد في تيارها فانضم اليها عزيز المصري ورجال حزبي العهد والعربية الفتاة .

١ ـ استوحي هذا التقسيم عن دراسة للاستاذ عصام نعمان لم تطبع بعد قسّم فيها الاحزاب العربية الى ثلاث فئات .

الاولى ـ المنظمات التي قامت ما بين سنة ١٩٠٨ـ١٩١٢

الثانية ـ » » » » ١٩١٢ـ١٩١٨

الثالثة ـ » » » » ١٩١٤ـ١٩١٨

وجعل شعارات كل من هذه الفئات حسب الترتيب الذي قدمته فيما سبق . وتعتمد دراسة الاستاذ عصام نعمان على دراسة لنجاتي صدقي .

٢ ـ هنالك اختلاف فمنهم من يقول سنة ١٩٠٩ ومنهم من يقول سنة ١٩١١ .

من كلمات الريحاني القومية والثورية

٣

أنا عربي شرقي ثوري . عربي اللسان ، شرقي الروح ، ثوري المبدأ . عربي لا يكره الترك . وشرقي لا يزدري الغرب . وثوري تهمه الكعبة مثلا اكثر مما يهمه الدستور . أنا ثوري روحي واخواني وان قل عددهم كثيرون ، سلاحنا من الله لا من معامل اوروبة . سلاحنا كلمة نقولها . رأي نبديه . بزرة نزرعها في قلوب الناس [١] .

أنا عربي جنسيتي على لساني وفي وجهي وطي اضلعي ، أنا عربي رمل البادية عزيز عندي ، كرم ابنائها وسيئات الغرب أجمل في نظري من حسنات التمدن [٢] .

أنا عربي احلم باحياء مجد العرب في ظل الدستور كان او في ظل اعدائه لا فرق عندي [٣]

١ الريحانيات – الجزء الثالث – الثورة الحقيقية ص ٨٢

٢ المرجع السابق ص ٨٢ .

٣ المرجع السابق ص ٨٢ .

أنا عربي حر وليست حريتي من فضل الدستور ولا من مكارم اخواني الترك . حريتي من الله . واذا فقدتها فأنا المسئول في ذلك لا الحكومة ومتى بدأ الشرقي يشعر ان حريته من الله لا من الحكام والرؤساء وان دينه لله ولا شأن فيـــه للعلماء والمتنطعين . بشّر الشرق اذ ذاك بنهضة اجتماعية حقيقية عظيمة [1]

الثورة الحقيقية أو بالحري الانقلاب العظيم هو الذي يساعد في ارتقاء الاشياء مما هي الى ما ينبغي ان تكون . مثل هذا الانقلاب يصلح حال الترك والعرب بل يصلح الشرق كله للشرقيين [2]

أنا ثوري اوقف حياتي لثورة سليمة حقيقية لا لثورة كاذبة سياسية ادعوا الناس الى ثورة أفكار واخلاق وآداب وأديان [3]

نهضة الشرق الفكرية — ولكنها مادية سياسية ولدتها تجارة الغربيين وشيدت أطماعهم معالمها . بل هي نهضة نرى للأوروبيين فيها اليد الطولى فهم القابضون على زمامها . وهم اسياد زعمائها . ومع ذلك ترى فيها ثمرة قد يجنيها ابناء البلاد اذا اصلحوا اخلاقهم ونبذوا ربقة المتنطعين

---

١ المرجع السابق ص ٨٣ .
٢ المرجع السابق ص ٨٥ .
٣ المرجع السابق ص ٨٣ .

من رجـــال الدين والمستأثرين من الحكام والمشعوذين من السياسيين . ونهضوا مسلحين لحرية حقيقية هي منحة الله لا منحة الدستور[1]

ولكن هذا الاصلاح لا يتم بلا انقلاب في الاحكام ، ولا يتم انقلاب بلا ثورة سياسية ولا تنجح الثورة السياسية بلا ضحية ولا تصح الضحية ان لم يكن صاحبها عالماً بأهمية ما هو فاعل[2]

---

١ المرجع السابق ص ٨٤ .

٢ الريحانيات – الجزء الثالث – روح الثورة ص ١٨٨ .

الباب الثالث

الحركة العربية والخلافة

كانت رابطة العرب بالخلافه دينية محضة ، فلقد كان سلاطين بني عثمان ورثة الخلفاء الراشدين ، والملوك الامويين والعباسيين[1] وكانت الخلافة في نظر المؤمنين جامعة المسلمين وسبب منعتهم وقوتهم . ولكن الخلافة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أخذت تضعف حتى انتهت بالهزال ، وقد رافق هذا الهزال فساد في الداخل، وتدخل من الدول الاستعمارية التي كانت تعتبر الامبراطورية العثمانية « رجلاً مريضاً » يجب موته واقتسام تركته ، كما رافق

١ ليس هنالك سند تاريخي يثبت ذلك . راجع كتاب ساطع الحصري « هي القومية (٢٣٩ - ٢٤٢) .

هذا الهزال يقظة فكرية وسياسية ، انعكست في دعوات الاصلاح المختلفة .

وكانت الخلافة حتى نهاية العقد الاول من القرن العشرين تتمتع بتأييد الجميع ، فالخلافة هي الرابطة التي يجب المحافظة عليها ، والاصلاح يجب ان يكون في ظل الخلافة ، وقد اسمى فرح انطون مجلته بالجامعة العثمانية كما أسمى جورج زيدان مجلته « الهلال ، تبركاً بالهلال العثماني » . ولم تكن مناسبة تمر الا ويتغنى الشعراء بالخلافة وأمجادها ، ولكن فساد السلطة والهزال الذي اصابها ومحاولة الاتراك للتفرد بالحكم دون العرب أدى اولاً الى دعوة دينية : تريد حصر الخلافة بالعرب على ان يكون مقرها مدينة مكة ، وكان من دعاة هذه الفكرة الكواكبي وجورج غانم ، ولكن هذه الفكرة لم تصبح دعوة .

وبإعلان الدستور سنة ١٩٠٨ بدأت علاقة جديدة بين العرب والترك اعتقد العرب بأنها مبنية على أساس المشاركة والحرية ، ولكن الدستور لم يحقق الآمال المعقودة عليه وذلك بسبب تسلط حزب الاتحاد والترقي على الحكم .

وفي عام ١٩١٣ عقد المؤتمر العربي الاول في باريس منادياً بالاصلاح على أساس اللامركزية ولكن الاتراك راوغوا في تنفيذ الاتفاق الذي تم بينهم وبين رجال المؤتمر وجاءت الحرب لتنهي العلاقة بين العرب والترك نهائياً .

وعلى الرغم من ان الدعوة للانفصال لم تكن الا بالثورة

العربية سنة ١٩١٦ فان فكرة الانفصال كانت بالنسبة لبعض الاحرار مثل محمد عبده ومصطفى كامل ، نوعـاً من التخريب ولقد هاجم شعراء أحرار الحركة العربية مثـل الرصافي والكاظمي لاعتبارها خروجاً على الخلافة العثمانيـة وكان شوقي أشد الشعراء تعلقاً بالخلافة وأكثر من نظـم فيها ، مصوراً انتصاراتها وهزائمها ، وتبلغ القصائد التي قالها في هذا الموضوع ٢٤ قصيدة منها الملاحم الطوال ، ويقول هو تعليقاً على ذلك :

حتى اتهمت فقيل : ترّكني الهوى
صدقوا هوى الابطال ملء فؤادي
والله يعلم مـا انفردت وانمـا
صورت في شعري شعور الوادي

المنظمات والعمل القومي المنظم

٢

منذ بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، والوطن العربي يتمخض عن ارهاصات ثورية .. تشكل كل منها حلقة من حلقات النضال لاجل الحرية .

وابتدأ النضال القومي العربي .

ابتدأ على شكل منظمة طلابية تأسست سنة ١٨٥٧ في بيروت وكان من أبرز اعضائها ابراهيم اليازجي الشاعر العربي المعروف صاحب قصيدة « تنبهوا واستفيقوا ايها العرب » . وقد حددت المنظمة أهدافها بما يلي :

١ — منح سورية استقلالها على ان يكون لبنان جزءاً منهـا .

٢ — اعتبار اللغة العربية اللغة الرسمية في البلاد

العربية .

٣ ــ الغاء الرقابة المفروضة والقيود الأخرى التي تحول دون الرأي وانتشار التعليم .

٤ ــ اداء الخدمة العسكرية في الاقاليم (اي ان يؤدي كل خدمته في اقليمه) الا عند الضرورة .

وكانت منشورات عنيفة قد وزعت تحمل رفضاً عنيفاً لمساوىء الحكم التركي ، تحض العرب لمقاومته . ولم يكن هذا الرفض العنيف للواقع الفاسد في بيروت فقط فهنالك كتابات لكتاب أجانب تدل على ان روح الثورة والتقدم قد بدأت تنتشر في الوطن العربي . يقول كاتب فرنسي زار سورية سنة ١٨٨٢ : « ان روح الحرية منتشرة وخلال اقامتي في سورية كان الشباب المسلمون ينظمون الجمعيات ليشجعوا انشاء المدارس والمستشفيات وليعملوا لتطور بلادهم . أما الجمعيات التي تألفت فتعترف بضرورة اشتراك المسيحيين في الواجب الوطني ولكنهم لم يدخلوا الاتراك في حسابهم » . ويقول كاتب فرنسي آخر زار بلاد المغرب العربي وشواطىء البحر الاحمر والخليج العربي والعراق : « في كل مكان مررت به توجد نفس العاطفة العامة : كره للاتراك ، فكرة العمل لرمي النير المكروه تتكون ، حركة عربية جديدة في ظهورها تلوح في المنطقة وجنس أذل يطالب بمكانه اللائق بين المسلمين : ويقول المفوض السياسي البريطاني في جدة

سنة ١٨٨٢ : ان مما هو معلوم لدي ان فكرة التحرر تقلق بعض الاذهان حتى في مكة * » .

نرى من هذا كله ان الوجدان القومي قد بدأ يستيقظ وباستيقاظه بدأت موجة عارمة من الوعي تتدفق ، تعبر عن نفسها بالمنظمات في اكثر الاحيان وبالآراء الفردية في بعضها .

كثرت الجمعيات في هذا العهد الممتد ما بين بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر ونهاية العقد الثاني من القرن العشرين ، حتى اننا نستطيع ان نسميه عهد الجمعيات . ولقد كان بعض هذه الجمعيات داخل الوطن العربي وبعضها في المهاجر . ومن هذه الجمعيات التي تأسست في الخارج ، في نهاية القرن الثامن عشر « الجمعية الوطنية العربية » سنة ١٨٩٥ التي أسسها خليل غانم في باريس . ولقد صدرت ايضاً مجموعة من الكتب في الداخل والخارج تعبر عن هذه الروح الثورية ، منها كتابا « أم القرى » و« طبائع الاستبداد » للكواكبي هذا الرجل المناضل الذي وصف العرب « بأنهم أهدى الأمم لأصول المعيشة الاشتراكية » والذي دعا بصراحة الى تنصيب خليفة عربي من قريش في مكة ، لأنه كان يعتقد ان العرب مادة الاسلام فاذا ضعف العرب ضعف الاسلام . ومن هذه الكتب ايضاً كتاب ألفه نجيب

* Arab Awkening
Georges Antonios

عازوري سنة ١٩٠٥ أسماه : « يقظة الأمة العربيه في آسيا التركية » حث فيه العرب على استرداد حقوقهم [١] وقد دعا فيه صاحبه الى « انفصال الولايات العربية عن الدولة العثمانية ، على ان تكون الحجاز مقراً لخلافة اسلامية عربية واحدة ، وان تتكون من العراق وسورية ولبنان وفلسطين دولة عربية واحدة عصرية [٢] . »

---

١ العقلية العربية بين الحربين ، علي حاج بكري .

٢ محاضرات في نشوء الفكرة القومية ساطع الحصري ١٧٠ .

العمل على المستوى العثماني

٣

التقى الشباب العربي في نضالهم مع الشباب الاتراك .. فجمعتهم منظمة سرية واحدة هي جمعية « الاتحاد والترقي » . وعندما حدث الانقلاب ووصل هذا الحزب الى الحكم كان اتجاهه مركزياً صارماً وعنصرياً طورانياً ، مما جعل النواب العرب ينضمون الى الحزب المعارض وهو حزب الحرية والائتلاف « لالتقائهم معه في الدعوة الى اللامركزية ، وكان ايضاً ان تشكل حزب عربي اسمه « اللامركزية العثماني » . وعندما اضطر الحزب الحاكم — حزب الاتحاد والترقي — للابتعاد عن الحكم خلال الثورة الالبانية تألفت حكومة جديدة من حزب الحرية والائتلاف

« أعلنت بأنهـا ستقوم باصلاحات أساسية عملاً بمبـدأ اللامركزية ثم طلبت من الولايـات أن تجمع المجالس العمومية لبحث ما تراه ضرورياً لاصلاح أحوال البلاد[1] » ولقد تألفت جمعية عمومية في بيروت ووضعت لائحـة اصلاحية ضمنتها مطالبها ، ولكن حزب الاتحاد والترقي استطاع الرجوع الى الحكم قبل انتهاء أعمال الجمعية فأمر بحل هذه الجمعيات كلها . وحدث من جراء هذا العمل استياء عام ومظاهرات ولكن الدولة استطاعت ان تفرض سيطرتها. ومن هنا اتجه النضال العربي الى تكوين الجمعيات السرية في الداخل ، وأشهر هـذه الجمعيات حـزب « اللامركزية » ومن مناضليه عبد الحميد الزهراوي ورفيق العظم وشبلي الشميل، وقد تأسس في القاهرة سنة ١٩١٢ وكان له اثر كبير في النضال العربي ، وسنرى هذا فيما بعد — وحزب العهد وقد ألفه عدد من العسكريين ومن بينهم عزيز المصري في السنة نفسها . وحزب العربيـة الفتاه الذي تأسس بعد عام واحد من هذا التاريخ وكان من اعضائه خليـل مردم وتوفيق السويدي وعوني عبد الهادي ، انضم اليهـا فيما بعد ساطع الحصري وشكري القوتلي . والجمعية القحطانية التي كانت تدعو للاستقلال وتعارض اللامركزية . ففي هذا الوقت نفسه سعى بعض

---

١ المرجع السابق ص ١٧٨ .

الشباب العربي لعقد مؤتمر عربي خارج البلاد العربية ، فكان مؤتمر باريس لعام (١٩١٣) الذي كان مهرجاناً قومياً رائعاً اتضحت فيه خطوط الفكرة القومية العربيـــة والمطالب السياسية . ولقد كان صدى المؤتمر كبيراً اذ تلقى المؤتمرون برقيات من جميع مدن الشرق العربي .

الباب الرابع

المؤتمر العربي الأول

« المنعقد في القاعة الكبرى للجمعية الجغرافية بشارع سن جرمن في باريس من ١٨ الى ٢٣ حزيران ١٩١٣ »

عقد المؤتمر باشراف حزب اللامركزية ، وهذا يعني ان مطالبة السياسية كانت محدودة ببرنامج هذا الحزب ، والجدير بالذكر ان لجنة المؤتمر التي تألفت في باريس ذكرت في كتابها الذي دعت فيه حزب اللامركزية لتبني المؤتمر — ضرورة الاصلاح على قاعدة اللامركزية ، ووضعت بين قوسين هذه الجملة — « كما هو مفصل في

برنامجكم » [1] .

ولاعطائنا صورة واضحة عن المؤتمر لا بد من تقديم موجز للمواضيع التي بحثت ولقد كانت كما يلي :

ا ــ تربيتنا السياسية : تكلم في هذا الموضوع رئيس المؤتمر عبد الحميد الزهراوي وقد ركز في خطبته على ثلاثة أشياء :

الأول : ان العرب جماعة من الجماعات لها اشتراك فيما بينها في المصالح العامة ومن مقتضى ذلك اتخاذ التدابير لصون هذه المصالح وتنميتها [2]

الثاني : ضرورة شيوع روح المراقبة في الامة ، وان لم يشتغل كل أفرادها في السياسة .

الثالث : الاخاء العربي التركي الذي يفرض اشتراك العرب في الحكم مما يجعل اللامركزية « اساس التربية السياسية » .

ب ــ حقوق العرب في المملكة العثمانية ، تكلم في هذا الموضوع عبد الغني العريسي من أعضاء لجنة المؤتمر وسأوضح رأيه فيما بعد .

ج ــ الحياة الوطنية في البلاد العربية العثمانية . وقد ربط هذا الموضوع في منشور لجنة المؤتمر بمناهضة الاحتلال [3]

---

١ المؤتمر العربي الأول صفحة ٧ .

٢ المرجع السابق ص ٣٢ .

٣ المرجع السابق ٧ و ٥٤ــ٦٤ .

تحدث في هذا الموضوع ندره مطران فبين كيف ان العرب لم يكونوا غرباء عن سورية ردا على مزاعم الذين يقولون بأن السوريين لم يحكموا أنفسهم منذ عهد « الهيرودين » ثم أظهر حقيقة علاقة عرب سورية بالحكم التركي مقررا أن العرب لم يشعروا بهذا الحكم الا في عهد عالي باشا [1] وبعد ان أوضح كيف أثـــار الاتراك الفتنة الطائفية في سورية قال ان العصبية العربية موجودة في سورية منذ الفتح الاسلامي مشيرا الى ان هذه العصبية لا تعني الانفصال عن الدولة العثمانية التي ما زال العرب بحاجة اليها .

د ــ أماني السوريين المهاجرين ــ تحدث فيه نجيب دياب صاحب جريدة « مرأة الغرب » التي كانت تصدر في نيويورك وممثل جمعية الاتحاد السوري . وكانت خطبته تعبيرا عن أماني النازحين الى ارض الحرية حبا بالحرية وبلاد العمل والنشاط حبا بالعمل والنشاط كما يقول أمـــا أماني المهاجرين الذين ذاقوا طعم الحرية ، وعرفوا نعم اللامركزية وأدركوا فوائد ــ الحكومات الشعبية الدستورية ــ فهي اصلاح وطن فارقوه على الرغم منهم ولكنه يريد هذا الاصلاح تحت راية الهلال فالسوريين يتمنون البقاء في حضن العثمانية بشرط ان تحفظ حقوقهم وان تصان أعراضهم وأموالهم وتؤمن تجارتهم وصحافتهم ثم ذكر معاملة الاتحاديين ،

---

١ المؤتمر العربي الاول ص ٥٧ ، وكان عادل باشا يودتوحيد الاحكام في الممالك العثمانية .

السيئة للعرب وانهى خطبته بتأييد مطالب اللجنة البيروتية في اللامركزية والاصلاح الداخلي واستخدام الخبراء الأجانب) [1]

هـ — كلمة توفيق السويدي « تحية العراق للمؤتمر » أعلن فيها تأييد متنوري العراق ومفكريه للمؤتمر معتبرا « ان الغاية واحدة والأمة واحدة والكلمة واحدة لأجل انقاذ الوطن وطلب الحياة السعيدة لهذه الامة الكريمة » .[2]

و — المهاجرة من سورية والى سورية : خطبة الشيخ أحمد طباره قد تحدث فيها عن سورية وسكانها ومساحتها وعن أسباب الهجرة مؤكدا أننا قوم ولدتنا امهاتنا عثمانيين ونشأنا عثمانيين ونريد ان نبقى عثمانيين [3] .

ز — الاصلاح على قاعدة اللامركزية : تحدث فيه اسكندر عمون المحامي احد مندوبي اللجنة العليا لحزب اللامركزية في المؤتمر ونائب رئيسها في القاهرة بدأ الحديث بتبيان وضع الدولة العثمانية معتبرا ان مصائبنا ناتجة عن عيب في المجتمع هو الحكم على قاعدة اللامركزية وقد قدم المبررات اللازمة لتبديل الحكم المركزي الدستوري بالحكم اللامركزي وأوضح ان الاصلاح لا يعني الانفصال عن الدولة العثمانية اذ أن كل ما يريده العرب هو اقامة

---

١ المؤتمر العربي الأول ص ٦٦ .
٢ المرجع السابق ص ٧٥—٧٦ .
٣ المرجع السابق ص ٨٣—٩٤ .

نظام يناسب كل عنصر من العناصر المؤلفة للدولة — ينتج عنه اشتراك في الادارة العامة [1] .

ح — رقي المهاجرين ومؤازرتهم للنهضة العربية الاصلاحية

كلمة نعوم مكرزل صاحب جريدة « الهدى التي كانت تصدر في نيويورك وممثل جمعية النهضة اللبنانية التي بين فيها ايمان المهاجرين باللامركزية المساوية الحـــرة المنصفة واعتقادهم بالحركة لا بالسكون واعتبارهم ان من لا يتقدم يكون بحكم جموده وتقدم غيره متأخرا وهو ينادي بالحرية والمساواة والعدل والثورة الأدبية الاصلاحية — فاذا ضاعت كل حيلة مع أعداء انفسهم كما يسمى الذين يقفون في وجه النهضة — أصبحت الثورة الدموية لازمة [2] .

ط — هنالك خطبتان آخريان الأولى لشارل الدباس عنوانها « تاريخ النهضة الاصلاحية » [3] والثانيه لشكري غانم كما ان هنالك تقريرا بعنوان « خلاصة أعمال المؤتمر » [4] وسنعود الى هذه عند الضرورة .

فكرة المؤتمر

نشأت فكرة المؤتمر لدى خمسة من الشباب العرب في

---

١ المرجع السابق ص ٩٨—١٠٤ .
٢ المرجع السابق ص ١٠٧—١١٠ .
٣ المؤتمر العربي الأول صفحة ١٣٥—١٣٩—١٤٠—١٤٦ .
٤ المرجع السابق ص ١٢٤—١٣٤ .

باريس هم عبد الغني العريسى — عوني عبد الهادي — محمد محمصاني — جميل مردم — توفيق فايد وبعد تشجيع شكري غانم وندره مطران جرت اتصالات بالجالية العربية في باريس نتج عنها انتخاب لجنة المؤتمر من الاشخاص الاتية أسماؤهم :

شكري غانم ، عبد الغني العريسي ، ندره مطران ، جميل مردم ، شارل دباس ، محمد محمصاني ، جميل معلوف .

وكانت وظيفة هذه اللجنة تنحصر في الاتصال بزعماء النهضة العربية واعداد العدة لنجاح المؤتمر اذا رأوا اقبالا عليه ، وادراكا للحاجة اليه . وفي جلسة لجنة المؤتمر المنعقدة يوم الثلاثاء ١١ آذار تقرر ان ترتبط هذه اللجنة بحزب اللامركزية في مصر بصفة رسمية وفي تاريخ ٤ نيسان أرسلت (اي لجنة المؤتمر) كتابا الى اللجنة العليا لحزب اللامركزية الادارية في القاهرة تعرض عليها فيه ، أن تكون لجنة الحزب قدوة المؤتمر ومصدر عمله وتقترح عليها انتخاب من يمثلها في المؤتمر وأنها ستعهد برئاسته الى أحد ممثلي الحزب وذلك لأن الخطة التي رسمت للمؤتمر وهي ان يكون انعقاده وسيلة لحفظ كيان الأمة العربية وازالة العقبات من طريق ارتقائها حتى يتسنى لها التجهز بأدوات مضادة والانتفاع بتجارب العلم والتمرن على النظام والأخذ بقوانين التهذيب فتقوى بذلك ويقوى مجموع الدولة

العثمانية بقوتها » [1] وفي الرسالة السالفة الذكر اعتبرت لجنة المؤتمر جماعة حزب اللامركزية « خيرة المواطنين خيرة وغيرة واقداما » [2] وفي الرابع عشر من نيسان نفسه جاء الجواب بالموافقة بتوقيع رفيق العظم رئيس اللجنة العليا لحزب اللامركزية [3] وعلى أثر ذلك أذاعت لجنة المؤتمر منشورا بينت فيه الأسباب الموجبة لانعقاده والتي تقرر على اساسها ان يكون قوميا » تتمثل فيه الأمة العربية المنتشرة في أقطار الارض وتحقق كلمة التضامن الاجتماعي والسياسي لهذه الامة في هذا المؤتمر حيث تبسط للامم الأوروبية اننا أمة مستمسكة ذات وجود حي لا ينحل ومقام عزيز لا ينال وخصائص قومية لا تنزع ومنزلة سياسية لا تقرع [4] وبعد ان ذكر المواضيع التي ستبحث ـ ذكرت سابقا ـ دعا كل من يخفق قلبه لأمة العرب صغيرا أو كبيرا ان يلبي داعي الوطن .

جلسات المؤتمر والوفود المشتركة فيه

عقد المؤتمرون أربع جلسات ألقيت خلالهـا الخطب وجرت المناقشات واتخذت المقررات وقد اشتركت فيـه

---

١ المرجع السابق ص ٥ .
٢ المرجع السابق ٦ .
٣ المرجع السابق ص.ن ٨ .
٤ المرجع السابق ص ٩–١٠ .

وفود عن : [1]

١ ــ اللجنة العليا لحزب اللامركزية والجمعية الاصلاحية العمومية البيروتية .

٢ ــ العراق . وقد مثله طالب وتاجر في فرنسا من أبناء العراق .

٣ ــ بعلبك ٥ ــ المهاجرين في الولايات المتحدة ــ المكسيك ٧ ــ جالية باريس ٨ ــ جالية القسطنطينية[2]

القضايا التي أثارها المؤتمر :

من دراسة الخطب والمحاضرات والمناقشات نستطيع ان نقرر ان المؤتمر أثار القضايا التالية :

ا ــ القضية القومية وحق العرب كجماعة ولقد جاء هذا واضحا في أكثر المحاضرات والخطب التي ألقيت . كما جاء واضحا في فكرة المؤتمر [3] وفي رسالة اللجنة التأسيسية للمؤتمر الى حزب اللامركزية [4] وفي الدعوة التي وجهتها هذه اللجنة الى أبناء الامة العربية [5] ومن أوضح ما جاء في ذلك قول عبد الغني العريسي في محاضرته التي عنوانها (حقوق العرب في المملكة العثمانية) هل للعرب

---

١ المرجع السابق ص ١١٣–١٢٠ .
٢ المؤتمر العربي الاول ص ١٤–١٦ .
٣ المرجع السابق ص ٣–٤ .
٤ المرجع السابق ص ٦ – ٧ .
٥ المرجع السابق ص ٩–١١ .

حق جماعة ؟ .

ان الجماعة في نظر علماء السياسة لا تستحق هذا الحق الا اذا أجمعت على رأي علماء الالمان وحدة اللغة ووحدة العنصر وعلى رأي علماء الطليان وحدة التاريخ ووحدة العادات وعلى مذهب ساسة الفرنسيس وحدة المطمع السياسي فاذا نظرنا الى العرب من هذه الوجوه الثلاثة علمنا ان العرب تجمعهم وحدة لغة ووحدة عنصر . ووحدة تاريخ ووحدة عادات ووحدة مطمع سياسي فحق العرب بعد هذا البيان ان يكون لهم على رأي كل علماء السياسة دون استثناء حق جماعة ، حق شعب ، حق أمة .

يتساءلون عن ماهية هذا الحق لجماعة الأمة العربية فبيانا لهذا الحق أقول : أول حق لجماعة الشعوب حق الجنسية [1]

ب — قضية التقدم — والتمتع بنعم العدل والمساواة والحرية واللامركزية .

ج — قضية شكل الحكم — ولقد كان هنالك أصرار على اللامركزية وجاء هذا واضحا في الدعوة التي وجهتها لجنة المؤتمر الى ابناء الأمة العربية فالدعوة تقول : « ونصارح الدولة العثمانية بأن اللامركزية قاعدة حياتنا وان

---

١ المرجع السابق ص ٤٢—٥٠ .

حياتنا أقدس حق من حقوقنا وان العرب شركاء في هذه المملكة شركاء في الحربية — بشركاء في الادارة — شركاء في السياسة وأما في الداخلية ببلادهم فهم شركاء أنفسهم [1]

كما جاء هذا واضحا في تبني حزب اللامركزية للمؤتمر وفي خطب ومحاضرات المؤتمرين . قال ندره مطران : ان العرب لا يجهلون حسنات ارتباطم بالدولة العثمانيـــة وحرصهم عليها اذا أرادوا أن يصونوا انفسهم مـــن شرور أقل ما فيها الأسر والاستعباد الى ما شاء الله [2]

وقال اسكندر عمون : « اننا نريد حكومة عثمانية لا تركية ولا عربية حكومة يتساوى فيها جميع العثمانيين في الحقوق والواجبات فلا يستأثر فريق بحق من الحقوق . لا بداعي الجنس ، ولا بداعي الدين . عربيا كان أو تركيا او أرمنيا او مسلما او مسيحيا او درزيا [3] .

وفي رفضه للمركزية اعتبر أنها تتعارض مع الدستور في دولة كالدولة العثمانية مختلفة العناصر مؤلفة من شعوب مختلفة .

د — الرابطة الدينية : في هذه الفترة بالذات كانت الدعوة للوحدة الاسلامية تتمتع بنفوذها الفعال في الأوساط

---

١ المرجع السابق ص ١٠ .
٢ المرجع السابق ص ٦٠ .
٣ المؤتمر العربي الأول ص ١٠٤ .

الفكرية العربية على الرغم من انحراف جماعة « الاتحاد والترقي » عن طريق هذه الدعوة وتسلطهم ، على الشعوب التي كانت تحكم باسم الخلافة تسلطا استعماريا في هـذه الفترة بالذات عقد المؤتمر لتعلن وجهة نظر جديدة تؤمن بأن الرابطة الدينية قد عجزت دائما عن ايجاد الوحـدة السياسية .

قال عبد الحميد الزهراوي رئيس المؤتمر في حديث له مع محرر جريدة الطان الفرنسية [1] : ان الرابطة الدينية قد عجزت دائما عن ايجاد الوحدة السياسية وأنا لا ارجع الى التاريخ لأبرهن على هذا بل حسبي ما لدينا الآن مـن الشواهد الحاضرة . انظر الى الحكومتين العثمانية والفارسية كيف لم تقدر رابطتهما الدينية على ازالة اختلاف بسيط من بينهما وهو الاختلاف المتعلق بالحدود [2]

وقال ندره مطران : « افتخر بأن الأمة العربية مسلمة وغير مسلمة متضامنة مترابطة في مصالحها تسعى الى نيل اصلاحات مشروعة وتنبذ بكل قوتها كل حركة من شأنها تداخل الغريب في أحكامها او انفصام العرى بينها وبين الدولة العثمانية وترويج أية غاية كانت غير عربية عثمانية في البلاد العربية العثمانية » . [3]

---

١ المؤتمر العربي الأول ص ١٧–١٠ ، كان هذا الحديث قبل المؤتمر .
٢ المؤتمر العربي الأول ص ٢٠ .
٣ المؤتمر العربي الأول ص ٦٠ .

وقال أحمد طباره – عضو وفد لبيروت – « نحن نعني بالعرب كل ناطق بالضاد لا فرق بين مسلم وغير مسلم » [1] .

ملاحظات حول المؤتمر

ا – ربط المؤتمر مسألة اللامركزية باستجابة الدولة العثمانية لمطالب العرب الاصلاحية ولم يجعلها قاعدة ثابتة ، ولقد جاء في تصريح عبد الحميد الزهراوي لمراسل جريدة الطان الفرنسية : « اما اذا ظلت بعيدة عن ذلك فأني أصرح لك كما صرحت في القاهرة بأن خطتنا معها تتغير حينئذ تمام التغيير » [2] كما قال عبد الغني العريسي « وأنه لا تتطرق الينا فكرة الانفصال عن هذه السلطنة ما دامت حقوقنا فيها مرعية محفوظة فارتباطنا بهذه الدولة يتراوح اذن بين ضمان هـذه الحقوق فان كثر فكثر وان قل فقـل » [3]

ب – أكثر المؤتمرون من ترديد كلمة سورية والسوريين على الرغم من أنهم جميعاً اعتبروا انفسهم « ابناء السلالة العربية المجيدة » واعتبروا أن مؤتمرهم جاء مذكرا للامة

---

١ محاضرات في نشوء الفكرة القومية – ساطع الحصري ص ١٨٣ .

٢ المؤتمر العربي الأول صفحة ٢٠ .

٣ المرجع السابق ص ٤٥ .

العربية في جميع الأقطار بأن لها وجودا قوميا وأن لهـا حقوقا سياسية وأدبية واقتصادية وانها مهضومة هذه الحقوق عند دولتها » [1] .

ج ـ اعتبر (المؤتمر) مصر خارج نطاق عمله على الرغم من اعتبار المؤتمر حركة عربية ومن اعتبار مصر عربية عثمانية . قال رئيس المؤتمر « ان مصر عربية عثمانية ولكن بما ان لها ادارة خاصة لا ينفذ فيها رأي العثمانيين وكذلك للبلاد العثمانية ادارة لا ينفذ فيها رأي المصريين لذلك أرجو ان يكون هذا عذرا لبقاء مناقشة الشؤون العثمانية الداخلية منحصرة فيمن لآرائهم حق التأثير على أحوالهم » [2] .

ويبدو ان كون مقر حزب اللامركزية في القاهرة كان له أثر على موقف رئاسة المؤتمر .

د ـ كانت اكثر البرقيات الواردة من مدن سورية ولبنان وفلسطين ومن المهاجر ، ولم تصل الا برقيتان من العراق الاولى من بغداد والثانية من البصرة من طالب النقيب ، اما من المغرب العربي فلم تصل الا برقية واحدة من الجزائر من الامير خالد حفيد الامير عبد القادر [3]

هـ ـ لم يحضر المؤتمر ممثلون عن المغرب العربي

---

١ المؤتمر العربي الاول صفحة ب من المقدمة .

٢ المؤتمر العربي الاول ص ١١٥ .

٣ المرجع السابق ص ١٩٦ .

لجزيرة العربية ومصر . والبرقيات التي وصلت المؤتمرين من مصر كانت من سوريين مقيمين فيها .

قرارات المؤتمر
وموقف جماعة الاتحاد والترقي

في جلسة المؤتمر العربي الاول المنعقد بتاريخ ٢١ حزيران من ١٩١٣ تقرر ما يلي :

١ — ان الاصلاحات الحقيقية واجبة وضرورية للملكة العثمانية فيجب ان تنفذ بوجه السرعة

٢ — من المهم ان يكون مضمونا للعرب التمتع بحقوقهم السياسية وذلك بان يشتركوا في الادارة المركزية للملكة اشتراكا فعليا .

٣ يجب ان تنشأ في كل ولاية عربية ادارة لا مركزية تنظر في حاجاتها وعاداتها

٤ — توسيع سلطة المجالس العمومية وتعيين مستشارين أجانب . (كما جاء في مطالب جمعية بيروت الاصلاحية).

٥ — اللغة العربيه يجب ان تكون معتبرة في مجلس النواب العثماني ، ويجب ان يقرر هذا المجلس كون اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية .

٦ — تكون الخدمة العسكرية محلية في الولايات العربية الا في الظروف والاحيان التي تدعو الاستثناء

الاقصى .

٧ ـ يتمنى المؤتمـــر من الحكومة السنية العثمانية ان تكفل لمتصرفية لبنان وسائل تحسين ماليتها (كما قرر ان هنالك مسألة تدعى « المسألة اللبنانية »)

٨ ـ يصادق المؤتمر ويظهر ميله لمطالب الارمن العثمانيين القائمة على اللامركزية .

وقد جاء في ملحق المؤتمر ان على اعضاء لجـــان الاصلاح الامتناع عن قبول اية وظيفة حكومية الا بموافقة الجمعيات المنتمين اليها ، كما جاء ان هذه القرارات ستكون برنامجا سياسيا للعرب العثمانيين ولا يمكن مساعدة اي مرشح في الانتخابات التشريعية الا اذا تعهد من قبل بتأييد هذا البرنامج وطلب تنفيذه [١]

عندما شاعت أخبار المؤتمر حاولت الدولة ممثلة بجماعة الاتحاد والترقي احباطه ، وقد عمدت الى « عبيدها » [٢] في سورية من موظفين ونفعيين فاستخدمتهم في التشويش على المؤتمر بارسال برقيات احتجاج ، ولم تكن هذه هي الوسيلة الوحيدة التي لجأ اليها الاتحاديون ، بل ان دوائر البرق حجزت البرقيات التي تسلمت اجرتها من المؤيدين [٣]

ولكن عندما بدت بشائر نجاح المؤتمر ارسلت الحكومة

---

١ المرجع السابق ص ١١ و ١٢ و ٢١٥–٢٢١ .

٢ المؤتمر العربي الأول صفحة ١٢ .

٣ المؤتمر العربي الأول ب من المقدمة .

وفدا من الحاج عادل بك ناظر الداخلية ومدحت بك شكري الكاتب العام لجمعية الاتحاد والترقي ، ولكن انحراف صحة الاول جعل الاتفاق يتم مع الثاني [1] ، ولم يخرج الاتفاق عن حدود المبادىء التي طرحها المؤتمرون وان كان الاتفاق قد حدد فعلا عـــدد الوزراء العرب في هيئة الوزارة ؛ تقول المادة (٧) من الاتفاق « يقبل مبدئيا ان يكون في هيئة الوزارة ثلاثة على الاقل من اولاد العرب ومثل ذلك يؤخذ منهم عدد بصفـــة مستشار او معاون في النظارات ويؤخذ اثنان او ثلاثـــة في كل مجلس من مجالس شورى : للدولة ومحكمة التمييز ودائرة المشيخة وجميع الدوائر ويؤخذ ربعة او خمسة على الاقل في مراكز أخرى مختلفة

صدر بعد ذلك قرار من مجلس الوكلاء (الوزراء) وارادة سلطانية وكانت الارادة كالقرار خالية من الاشارة الى ما جاء في المادة السالفة الذكر على الرغم من انهـــما (القرار والارادة) قد نصا عـــلى ضرورة الاصلاح والمطالب الاخرى .

وعندما اعلنت الحرب العالمية الاولى اعدم الاتراك من استطاعوا القبض عليه من زعماء حركة الاصلاح العربية وعلى رأسهم عبد الكريم الخليل الذي فاوض .

---

١ المؤتمر العربي الاول صفحة س المقدمة .

الباب الخامس

مقدمات الثورة العربية الأولى

١

أولا ــ الدستور ؛ فالدستور الذي حصل عليه الشعب بعد انتظار طويل ، والذي ارتفعت معه شعارات العدالة والمساواة والاخاء، انهى عهداً كان فيه للدافع الديني المقام لاول [١] .

ثانياً ــ جاء الدستور مخيباً لآمال العرب اذ ان الاتحاديين عملوا على ابتلاع العناصر الاخرى وانشاء امبراطورية تركية تدين بالطورانية [٢]

ثالثاً ــ وصل الأمر بدعاة الطورانية حد الدعوة لاجلاء

---

١ الثورة العربية الكبرى ــ المجلدالاول ــ أمين سعيد ص ٢ .

٢ الثورة العربية الكبرى ــ المجلد الاول ــ أمين سعيد ص ٢ .

العرب عن بلادهم وتحويلها الى مستعمرات تركية عدا انهم دعوا لتنقية اللغة التركية من الكلمات العربية فقد لقنوا التلاميذ اناشيد وقصائد كانت تجعل من جنكيز خان المثل الاعلى للزعيم المنقذ ، ولقد اجزلوا العطاء للأندية التركية التي انشئت للعمل من اجل المبدأ الطوراني كما ساعدوا على نشر الكتب التي ظهرت وقتئذ مؤيدة هذا المبدأ مثل « قوم جديد » ومستقبل تاريخي و « صوك الكتاب » وما تضمنه كتاب « قوم جديد » خطبة القاها الشيخ عبيد الله في جامع آيا صوفيا جاء فيها : « ما هذا الجهل وما هذه الغفلة التي استولت عليكم . تعلقون اسماء خلفاء العرب على جدران جوامعكم ولا تذكرون بالاحترام اسماً من اسمـــاء خلفاء الترك الذين قدستهم الاحاديث النبوية الكثيرة [1] . مما جعل الصحف العربية في الشام وبيروت والقاهرة تنبرى للرد على هذه الحملة .

رابعاً — الجمعيات والمنظمات ، تأسست في هذا العهد عدد من الجمعيات والمنظمات للعمل من اجل القضية نقدم عنها موجزاً فيما يلي :

أ — جمعية الاخاء العربي العثماني تأسست في الاستانة سنة ١٩٠٨ وكان مؤسسوها من الموظفين العرب الكبار في العهد الحميدي . وقد استعان هؤلاء بعدد من الشباب

---

١ العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب محمد جميل بيهم ص ١٢٥–١٥٣ .

المتحمسين خشية على مناصبهم . « اما مقصدها فهو معاونة جمعية الاتحاد والترقي في سبيل المحافظة على احكام القانون الاساسي (الدستور) وجمع كلمة الملل المختلفة العثمانية بدون تفريق في الجنس والمذهب وتمكين الرابطة الجامعة بينهم وذلك لاجل خدمة الدولة العثمانية واصلاح الشئون المختلفة ثم السعي لاعـــلاء شأن الامة العربية الخ » [1] ولكن هذه الجمعية لم تدم طويلا لأن التجانس كان مفقوداً فيها .

ب ــ المنتدى العربي ، أنشيء سنة (١٩٠٩) ، ومن مؤسسيه عبد الكريم الخليل ويوسف سليمان حيدر ، ورزق سلوم ، ليكون ملتقى الشباب العربي في الاستانة ، ولقد لعب دوراً عظيماً في السياسة ولا سيما في الاتفاق الذي عقد بين زعماء العرب والاتحاديين وظل يمارس نشاطه الى ان اغلقته الدولة سنة (١٩١٥) .

جـ ــ العربية الفتاة : انشئت في باريس ثم انتقل مقرها الى بيروت سنة (١٩١٢) . وكان مقصدها العمل للنهوض بالأمة العربية الى مصاف الأمم الحية دون الانفصال عن الترك ولكنها عدلت عن ذلك بعد الحرب . وقد اصبحت منظمة قوية عرف عنها الدقة والسرية في التنظيم . ومن مؤسسيها الدكتور احمد قدري ومحمد المحمصاني وعبد الغني

---

١ ما كتب عن الجمعيات والاحزاب كان موجزاً عن كتاب الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد – المجلد الأول .

العريسي وجميل مردم بك .

د ـ الجمعية القحطانية : اختلف على اسم مؤسسيها فقيل انه عبد الكريم الخليل وقيل غيره . دخل عدد كبير من الشباب العرب بينهم ضباط في الجيش العثماني وقد عاشت حتى الحرب العظمى الاولى .

هـ ـ العلم الاخضر : أنشئت في الاستانة سنة ١٩١٢ لتقوية الروابط بين الطلاب العرب وتوجيه قواهم لخدمة أمتهم ، من مؤسسيها الدكتور اسماعيل الصغار واحمد عزت الاعظمي وعاصم بسيسو [١] . أصدرت مجلة عنوانها « لسان العرب » وعاشت حتى الحرب العظمى الاولى .

و ـ حزب اللامركزية العثماني .

ز ـ جمعيات بيروت والبصرة الاصلاحية .

ح ـ حزب العهد وقد أسسه عزيز علي المصري سنة ١٩١٣ وضم نخبة من ضباط العرب في الجيش العثماني وكانت غايته المحافظة على الخلافة واعتبارها وديعة مقدسة بيد آل عثمان . وقد قويت هذه الجمعية وحكم على رئيسها بالاعدام ولكن الدولة الاتحادية ؛ اضطرت للعفو عنه بسبب المظاهرات والاحتجاجات التي قام بها العرب .

ط ـ الجمعية القحطانية ، انفصل اعضاؤها عن حزب اللامركزية لأسباب خاصة وأخذوا يدعون للانتفاض على آل عثمان واستقلال البلاد العربية ؛ وكانت تسمي نفسها

---

١ الثورة العربية الكبرى ـ المجلد الاول ـ أمين سعيد ص ٥٢ـ٥٤ .

احياناً « الجمعية الثورية » . وقد انشئت في مصر وهي غير الجمعية القحطانية التي ذكرت سابقاً .

ي ـ جمعية الجامعة العربية : انشأها محمد رشيد رضا سنة (١٩٠٩ـ١٩١٠) وكان مقصدها السعي لاتحاد حلفي بين امراء العرب والتعاون على عمران البلاد والدفاع عنها وايجاد صلة بين الجمعيات العربية ، وقد اسسها بعد اعتقاده بعدم امكانية دوام الاتحاد بين العرب والترك .

ك ـ حزب الاصلاح الحقيقي ، تأسس في دمشق سنة ١٩١٣ وكان همه الدفاع عن الدولة العلية ومهاجمة رجال الاصلاح .

خامساً : اجراءات حزب الاتحاد والترقي التعسفية الصارمة كحل الجمعية الاصلاحية في بيروت واقصاء الضباط العرب الى المناطق النائية والتدخل في الانتخابات التي اجريت سنة (١٩١٣) لمصلحة حزب الاتحاد والترقي ، ومحاربة الحركة العربية في اي شكل من أشكالها .

سادساً : مجازر بيروت ودمشق .

سابعاً : خشية الشريف حسين من الاتحاديين واتصال ابنه فيصل بالجمعيات العربية وحاجة بريطانية العسكرية الى تمزيق الجبهة التركية من الداخل .

قائد الثورة العربية الاولى

٢

التقى المناضلون العرب – اعضاء الجمعيات السالفة الذكر – أخص بالذكر منهم أعضاء جمعية العربية الفتاة – مع سياسي كبير في محاولتهم للعمل من أجل الاصلاح ، وكان هذا السياسي هو الملك حسين شريف مكة الذي أجرى الاتصالات اللازمة بالانكليز لتأمين مطالبه ، ولكن محاولة الاصلاح هذه المرة كانت تعني خروجاً نهائياً على الحكم العثماني وعلى السلطنة ؛ كما كانت تعني دعوة لانشاء دولة عربية في المشرق العربي .

لقد كان الشريف حسين « أكبر ملوك العرب سناً وأظهرهم جلالا وأرفعهم من الوجهة الدينية مقاماً وأعمقهم في السياسة مسلكاً وأضعفهم اليوم سلطة وأشدهم كرباً وهماً » [١] ويقول عنه أيضاً أمين الريحاني « ان فضله

---

١ ملوك العرب – أمين الريحاني ص ٦١ .

الأكبر لفي ثورته على الاتراك وان كانت المصلحة والمساومة فيهـــا مرعية أكثر من المبادىء التي اعلنت من اجلها » ويقول : « ثم في الثبات المدهش في مطالبته بحقوق العرب وان كانت عمومية الى حد الابهام » ويقول : « انه وان كان مبدأه المساومة لجدير بالاعجاب والاجلال » [1] ويقول في التعليق عل الاتفاق الذي جرى بينه وبين بريطانيـــا والذي نسخته اتفاقية سايكس بيكو « ان تلك الصفقة لصفقة يائس مستهتر وان في تلك الشروط دايلا على سذاجة في المنقذ الاكبر مهما كان دهاؤه السياسي » [2]

لقد أقر الاتفاق المذكور قيام دولة عربية في المشرق العربـي — دون التوصل لاتفاق نهائي على حدودها — على أن تكون البصرة تحت اشراف بريطانيا وعلى أن تتعهد بريطانيا بامداد الدولة الجديدة بكل ما تحتاج اليه من مال وسلاح وذخيرة خلال الحرب . وعلى أساس هذا الاتفاق أطلـــق الشريف حسين الرصاصة الاولى وأعلن منشور الاستقلال .

منشور الثورة

نستطيع أن نوجز منشور الثورة بما يلي : [3]

١ ملوك العرب — أمين الريحاني ص ٧٤ .
٢ ملوك العرب — أمين الريحاني ص ٧٥
٣ الثورة العربية الكبرى — أمين سعيد — المجلد الأول — ص ١٤٩—١٥٧ .

أولا ـ انحـــراف الاتحاديين عن صراط الدين ، وطعنهم في الاسلام وتجرؤهم على السيرة النبوية والخلفاء الراشدين .

ثانياً ـ اشتراكهم في حرب اوروبية ووقوفهم بالدولة موقف الهلكة .

ثالثاً ـ اصدار اوامر للجنود في مكة بجعل الصلاة والصوم اختياريين .

رابعاً ـ سلبهم ما للسلطان المعظم من حق التصرف الشرعي .

خامساً ـ اضطهادهم للعرب وللغة العربيـــة وأحكام الاعدام التي اصدرها ضد متنوريهم .

سادساً ـ ارسال كتائب وأسلحة كثيرة الى الحجـــاز بينما هو ليس في حاجة الى ذلك .

ويعيد المنشور الحديث النبوي (اذا ذلت العرب ذل الاسلام) كما انه يعتبر أن القيام بهذه الثورة واجب ديني من الواجب على المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها أن يقدموا اليها ما يساعد على احكام روابط الاسلام . كما يعتبر أن الثورة خدمة للاسلام تفيد المسلمين جميعاً حتى لأتراك .

الباب السادس

الاستقلال والحركة الاصلاحية

١

عندما بدأت الحرب وجد أحرار العرب الفرصة مؤاتية لتحقيق آمالهم وباتفـــاق تم بينهم وبين الشريف حسين والانكليز أصبح أحرار العرب حلفاء للحلفاء . وأعلنت الثورة العربية سنة ١٩١٦ على أساس قيام دولة عربية في سورية الطبيعية بعد تحريرها من الاتراك ولكن هل كان العرب جديرون بالاستقلال ، سؤال يبدو انه بدأ يتردد في اذهان بعض المفكرين ، ولقد كان أول رد عليه ذاك الذي سجله الدكتور شبلي الشميل سنة (١٩١٥) [١]

---

١ سوريا ومستقبلها – الدكتور شبلي الشميل ص ١٥ – ١٩ .

فالشميل يرى أن الحركة الاصلاحية لم تكن من القوة والعمق بحيث تكون قادرة على نيل الاستقلال والاحتفاظ به . ان كل ما تفعله مجرد محاولات للفت انظار الدول . يقول : ولا اظن ان الحركة الاصلاحية التي ظهرت من عهد قريب كان يقصد بها سوى لفت النظر الينـــا لعل الفرج يأتينا بحوادث من مثل الحوادث الجارية اليوم والمرجو ان تخرجنا من حالتنا القديمة مهما تكن النتيجة » [1]

اذن فخروجنا عن حالتنا مرتبط بظروف كظروف الحرب العالمية الاولى.ومثل هذا الخروج لا بد من الاعتماد فيه على دول اجنبية ذات مصالح : « فخروج سورية من يد تركيا اذا تم لا يتم بنا بل بواسطة سوانا ممن له عندنا مصالح لا يسعه ان يتخلى عنها فهي خارجة ليده في كل حال سواء رضينا أم لم نرضى » [2]. فالاستعمار اذن لا بد أن يحتل بلادنا والكفاح من أجل طرد الاتراك لن يؤدي الاّ الى احتلال جديد . « ولكن نحن بامكاننا أن نستفيد من هذا الخروج لمستقبلنا » [3] . هذا ما يفترضه الدكتور شبلي الشميل وليبرر هذه الفرضية يقرر « أن الدول الراقية اليوم معمرة لا تحتل بلادنا الا بفكرة الخير للانتفاع من عمارها . لا كما كانت الحال في القدم غالباً للسلب والنهب

---

١ المرجع السابق ص ١١ .
٢ المرجع السابق ص ١٦ .
٣ المرجع السابق ص ١٧ .

والتخريب والاذلال كما هو شأن الحكم التركي على نوع خاص . والبرهان الحسي موجود أمامنا في مصر اذا قابلنا بين ما كانت عليه قبل الاحتلال البريطاني ، وما صارت اليه بعده [1] . فالإستعمار نافع اما الاستقلال فغير نافع ومن حسن الحظ أنه لا يتم [2] . أما الدولة التي يجب ان تتولى مهمة استعمارنا فهي بريطانيا وفرنسا أما الدولتان فمشتركتان على ان نستبعد المانيا . ولكي يكون الاستعمار نافعاً لا بد من أن نخلص له لكي يخلص لنا [3] .

يستند الدكتور الشميل في اثبات رأيه على فرضيتين : الاولى ،أننا لا نملك الكفاءة التي نستطيع صيانة الاستقلال بها ، والثانية : أننا لا نملك المال لنستطيع القيام بتعمير بلادنا. بينما تملك الدول الاستعمارية كل ذلك . لقد جاء هـذا الرأي قبل الثورة ليتحقق بعد نهاية الحرب .

---

١ المرجع السابق ص ١٧ .
٢ المرجع السابق ص ١٧ .
٣ المرجع السابق ص ٢١ .

الجامعة الاسلامية والخلافة بعد الدستور

٢

بعد الدستور ظهرت النزعة « الطورانية » المعادية للعرب وللخلافة وللجامعة الاسلامية ، كما ظهر التيار الاصلاحي الذي حاول رواده ، ان يعطوا معنى جديداً للجامعة الاسلامية ، ولعلاقة العرب بالاتراك . وفي غمرة الصراع حاول رجال الدين ان يقدموا « حلّهم » للمشكلة .

من آراء المصلحين

بدأ الاصلاحيون في هذه المرحلة يصرون على أولوية « عصبية الجنس » على العصبية الدينية وإن كانوا لا يرفضونها : « فالروابط الاخرى لا سيما رابطة الجنس والوطن فانها طبيعية الوجود لا سبيل الى انحلالها الا بانحلال القوم المنتسبين اليها ، ويلي هاتين في المنزلة العصبية الدينية

ونقول تليها هذه العصبية لانها نادرة الظهور بين الامم ولا يلجأ اليها الا حين الضرورة القصوى [1] . « وقل ما جمع الدين كلمة أهله بأجمعهم الا في الشاذ النادر اللهم الا في العواطف دون الفصل فقد يتألم مسلم الغرب لمسلم الشرق اذا أصيب بمصيبة كبرى فلا يتعدى ألمه هذا دائرة الشعور [2] .

واذا كان الواقع هكذا ، اذا كان الدين عاجزاً عن أن يكون رابطة تجمع أهله ، وإذا كانت الرابطة « الجنسية » الوطنية هي الاصل يتغير الموقف من غير المسلمين وتسود الاخوة القومية لا سيما « وأن العالم يسير الى الديمقراطية الصحيحة سيراً حثيثاً يجعل حياة الامم السياسية بمعزل عن الاعتقادات بحيث لا يكون تباين اعتقادين في شعب واحد مانعاً من توثيق عرى القومية أو مبايناً أغراضها السياسية وقد سبق الغرب الشرق لهذا العهد الى هذه الديمقراطية وبدأ الشرق يحس بها أو يشعر بالحاجة اليها بعد ان ثقلت عليه سيطرة الغرب وأنهكه طول التفرق والانقسام فليس المسيحي واليهودي وغيرهما بأقل حاجة من المسلم الى الاعتقاد بالقومية وتوثيق وشائج الاخاء الوطني للدخول في تلك الديمقراطية الصحيحة التي ترفع شأن الامم وتحوط حياة

---

١ الجامعة الاسلامية واوروبا – رفيق العظم (١٩٠٧) صفحة ٤

٢ المرجع السابق ص ٤ .

الاقوام السياسية بسور من القوة [1] .

ولكن كيف يفسر قبول الاصلاحيين العرب بحكم عثماني مثلاً ؟ وما الذي يبرر الدعوة للجامعة الاسلامية ؟

يقول رفيق العظم وعلى تقدير أن هناك ما يدعو الى الظن باتحاد المسلمين في هذا العصر فنشأوه اتحاد أوروبا على اكتساح ممالك الاسلام واستعباد المسلمين فليسموا اتحاد المسلمين بازاء اتحادهم الاتحاد الديني او الجامعة الاسلامية أو الشرق والغرب او ما شاءوا من الاسماء أفليس معنى ذلك كله ان المسلمين يريدون الاعتصام بجامعة كبرى تقابل اجتماع الدول المسيحية على اهتضام حقوق الامم الاسلامية » [2] .

فالدعوة للجامعة الاسلامية ليست دعوة دينية إنها حلف دفاعي غرضه مقاومة الاستعمار الغربي « فهي — أي هذه الحركة — إذا ظنها الاوروبيون مقدمة للاتحاد الاسلامي أو عين الاتحاد فانما هي اتحاد على معرفة الواجب بالبحث عن مصدر ترقي أوروبا وهو العلم والحرية » [3] .

ان تكون الجامعة الاسلامية حلفاً دفاعياً وأن تكون اتحاداً على معرفة الواجب « اعتقاد » ليس بالجديد — فقد

---

١ المرجع السابق ص ٥٠ .

٢ المرجع السابق ص ٨–٩ .

٣ كان الافغاني يقول بمثل هذا .

٤ الجامعة الاسلامية وأوروبا — رفيق العظم (١٩٠٧) ص ٣٤ .

قال به الافغاني كما ذكرت – ولكن ان تكون الرابطة الجنسية الوطنية « طبيعية الوجود لا سبيل الى اغلالها » وان يكون الدين عاجزاً عن جمع شمل المؤمنين به الا في القليل النادر وان يكون هذا العهد عهد القومية والاخاء الوطني ... ان كل ذلك هو من ميزات هذا التفكير الحر الذي جعل « أسباب النهضة موضوعية وليست دينية »[1]

من آراء رجال الدين

كانت الردة المباشرة للدعوة الطورانية ، والدعوة لفصل الدين عن الدولة ان وقف رجال الدين – لا سيما بعد أن اصبح مقام الخلافة في خطر باشتداد ساعد المقاومين لها من جهة وبامتداد ظل الاحتلال الاجنبي من جهة ثانية – ليؤكدوا « ان فكرة الاتحاد الاسلامي في ظل الخلافة وتحت راية الهلال أمر واقع لأنها جزء من الدين .. [2]

وتخوفاً من انحلال الامبراطورية العثمانية أصبح لا بد من ربط زوالها بعدم امكان قيام أخرى مكانها » [3].

وعلى الرغم من انتهاء الحرب واحتـــلال الجيوش

---

١ المرجع السابق ص ٥٤ .

٢ حبل الاعتصام ووجوب الخلافة في دين الاسلام (١٩١٦) محمد حبيب العبيدي صفحة ١٣ .

٣ المرجع السابق ص ١٠٤ .

الأجنبية للبلاد العربية فقد ظل هناك أمل بأن تعود ولكن عودتها الآن ارتبطت بالدعوة لاصلاح شامل « فقد اشتدت حاجة البشر الى اصلاح روحي مدني ثابت الاركان يزول به استعباد الاقوياء للضعفاء واستذلال الاغنياء للفقراء وخطر البلشفية على الاغنياء ويبطل به امتياز الاجناس لتحقيق الاخوة العامة بين الناس ولن يكون ذلك إلا بحكومة الاسلام .. [1]

ولكي يكون ذلك ممكناً لا بد من العمل لتحقيق الوحدة الاسلامية الذي « ينحصر اليوم في الشعبين الكبيرين — العربي جرثومة الاسلام والتركي سيفه الصمصام — وان أمر البلاد العربية المستقلة بيد أئمتها وأمرائها فالتأليف بينهم مقدم على كل شيء » [2] . أما الذي يستطيع ان يضطلع بالمهمة فهو « حزب الاصلاح المعتدل الجامع بين الاستقلال في فهم فقه الدين وحكم الشرع الاسلامي وكنه الحضارة الأوروبية ، وهذا الحزب هو الذي يمكنه إزالة الشقاق من الامة على ما يجب عمله في احياء منصب الامـــامة [3] المهدد من حزب المتفرنجين والملحدين الداعين الى الغـــاء الخلافة الاسلامية في الامة واتخاذ جميع الوسائل لاستبدال الرابطة الجنسية أو الوطنية بالرابطة الدينية الاسلامية » [4]

---

١ الخلافة أو الامامة العظمى — محمد رشيد رضا (١٣٤١) صفحة ٧ .

٢ المرجع السابق ص ٦١ .

٣ المرجع السابق ص ٦٢ .

٤ المرجع السابق ص ٦٣ .

لمن تكون الخلافة

ولكن الآن في الوضع الجديد لمن تكون الخلافة ؟ للعرب ... للترك ؟ وهل يصلح الشريف حسين لهـذا المنصب ؟

يجيب على ذلك بالتفصيل محمد رشيد رضا في كتابه « الخلافة او الامامة العظمى » فهو يعتبر العرب قوة عظيمة للخلافة ولكنها غير منظمة ولا متحدة كقوة الترك [1] « ولهذا فالقسمة في مسألة مقام الخليفة ثلاثية وهي إما أن تكون في بلاد العرب أو الحجاز خاصة وإمـا في بلاد الترك أو الاستانة خاصة واما في منطقة وسطى مشتركة [2] واقترح ان تكون الموصل هي هذه المنطقة لوجود عرب واتراك واكراد فيها ».

وعلى الرغم من ذلك فمحمد رشيد رضا يقـول : « انني ضعيف الامل في كل من العرب والترك ولا أرى احداً منهما قد ارتقى الى هذه الدرجة بنفسه ولا ارى أية بينة على استعدادهما لما اقترحت من تعاونهما عليه [3] .

اما الشريف حسين قائد الثورة العربية الاولى فهنالك موانع تحول بينه وبين الخلافة وهي :

---

١ المرجع السابق ص ٧٠ .

٢ المرجع السابق ص ٧٣ .

٣ المرجع السابق ص ٧٦ .

١ ــ اعتماد ملك الحجاز على دولة اجنبية .

٢ ــ أن هذا الملك يسعى لأن يكون الزعيم الاكبر للأمة العربية ليجرها كلها الى الاستعباد .

٣ ــ رضي ان يجعل ولديه رئيسين في بلدين عربيين محتلين .

٤ ــ ان حكومته استبدادية شخصية .

٥ ــ ان حكومته خصم لكل علم يعين على الاصلاح الديني والدنيوي والعلوم العصرية .

٦ ــ حرص اهل هذا البيت على الخلافة والامـــارة ولو في ظل الاجنبي .

٧ ــ فقدان أهل هذا البيت لاهم شروط الخلافة ولا سيما العلم بدليل ما نقرأه في منشورات الملك الرسمية من اخطاء لغوية وتحريف للآيات القرآنية والاحاديث النبوية .

٨ ــ معظم العالم الاسلامي يمقت حكومة الحجاز .

٩ ــ لا يرجى ان يرضى ــ هذا البيت الحـــاكم ــ بالوسائل العلمية والعملية التي يتوقف عليها هذا الاصلاح العظيم .

١٠ ــ الحجاز لاقوام له بنفسه . [١]

* * *

---

١ المرجع السابق ص ٧٤ــ٧٥ .

نقلت باختصار مع محاولة المحافظة على الصيغة الاصلية .

ان كتاب محمد رشيد رضا لا يناقش المسألة من نواحيها العملية والسياسية فحسب بل يناقشها نظرياً ومن جميع الوجوه ويبين مقوماتها النظرية والعملية بحيث تصبح منهجاً صالحا للحكم . والجدير بالذكر ان هذا الاتجاه أخذ يصر على اعتبار الانكليز « أشد الامم عداوة للإسلام والمسلمين [1] .

---

١ حبل الاعتصام ووجوب الخلافة في دين الاسلام ص ١١٥ .
والخلافة أو الامامة العظمى – محمد رشيد رضا .

٥

الباب الاول

الفكر الاشتراكي بعد الحرب العالمية الأولى

لا نجد قبل الحرب العالمية الأولى دراسة واحدة تبحث موضوع الاشتراكية بايجاز أو بالتفصيل ، كل ما نجده آراء عابرة وتعليقات لا تصل الى مستوى المذهب والنظرية أما في فترة ما بعد الحرب — وفي حدود الفترة المقرر التأريخ لها وهي نهاية العقد الثاني من القرن العشرين — فاننا نجد دراسة في الموضوع لم نقع على مثيل لها خلال مراجعتنا لما كتبه الرواد الأوائل من المفكرين.

الدراسة كتاب من ثلاث وتسعين صفحة من الحجم المتوسط كتبها نقولا حداد يطلب من « دار الهلال » التي اصدرتها سنة (١٩٢٠) . ويبدو ان الدافع لاهتمام

« دار الهلال » بالموضوع هو ما لاقته الاشتراكية من التأييد بعد الحرب العالمية الأولى — وهذا ما تحدده المقدمة التي كتبتها الدار نفسها — وقد جاءت الدراسة شاملة عميقة لا ينقصها شيء من ميزات البحث العلمي . والكتاب يتألف من مقدمة وبابين وخاتمة . أما الباب الأول فيتألف من تسعة فصول تبحث في اجحاف النظام الافرادي (الرأسمالي) وأما الباب الثاني فيتألف من سبعة فصول تبحث في النظام الاشتراكي [1]

في الفصول التسعة الأولى ايضاح لرأي الاشتراكيين في « الرأسمالية » وفضح لمساوئها . ويرى الكاتب « أن النظام الافرادي فشل وخاب في مهمتـــه فلنر ماذا يستطيع أن يفعله النظام الاشتراكي [2] وهو يعتقد « أن الفكرة الاشتراكية بنت العقل المنطقي أي أنها نظرية عقلية تقتضيها الأحوال الاجتماعية ولهذا لا يستلزم تفهيمها تعملا ولا اعنات فكر [3] وليزيدهـــا ايماناً بضرورة الاشتراكية يقرر : « أن كل خاطر خطر على بال عدو للاشتراكية ليس الاّ ظل سخافة تلقاء نور الحقيقة في هذه العقيدة » [4] وللرد على الذين

---

١ كان قد انتصر الشيوعيون في روسيا ووصل الاشتراكيون للحكم في المانيا لمدة وجيزة .

٢ الاشتراكية — نقولا حداد ص ٤٦ .

٣ الاشتراكية — نقولا حداد (المقدمة) ص ٥

٤ الاشتراكية — نقولا حداد ص ٤٨ .

يعتقدون أنه من المستحيل مقاومة « سنة طبيعية اصيلة في الأحياء موروثة في الطبيعة » أي مقاومة النظام الرأسمالي والتغلب عليه يقول : « أقول : نستطيع . فكما استطعنا أن نسن نظاماً قضائياً وقانون عقوبات يمنعان القوي العضل عن السطو عن ضعيف البدن واستلاب ماله نقدر أن نسن نظاماً نمنع فيه المتمول عن امتصاص دم العامل . وكما استطعنا أن ننظم حكومة تدير شئوننـــا السياسية ونشترك جميعاً في فوائدها نستطيع أن نسن نظاماً اقتصادياً عادلا نشترك جميعاً في فوائده » . الخ [1] . وهكذا يصبح العمل من أجل الاشتراكية مجرد رغبة انسانية ، ويصبح التفكير الاشتراكي لا كما يقول جورجي زيدان « ليس من الأمور المطابقة لمجريات الطبيعة » بل من الأمور المنسجمة مع الطبيعة الانسانية في بحثها عن عالم أفضل .

اشتراكية نقولا حداد

يرى نقولا حداد أن « غاية الاشتراكيـــة القصوى اقتصادية وهي تتذرع الى الوصول اليها بغاية سياسية . أما الغاية الاقتصادية فهي أن تكون جميع المسترزقات ملك الأمة لا ملك الأفراد . وأما الغاية السياسية فهي أن تكون القوانين مؤيدة هذا النظام وحائلة دون مخالفته . [2] فكل

١ المرجع السابق ص ٥٢ .
٢ المرجع السابق ص ٥٢ .

مصادر الثروة وطاقات العمل ملك للأمة تديرها الدولة .

ولكن كيف تتحقق سيطرة الأمة على ثرواتها والتحكم المالي قائم ؟ يطرح نقولا حداد هنـــا آراء الاشتراكيين ولكنه لا يقبل منها طريق الثورة والاغتصاب لما فيه من الجور الظلم ولا طريق نزع الملكيـــة والتعويض لاستحالة تطبيقه ولأنه يتعارض مع أهداف الاشتراكية بل يدعو لرأي « هنري جورج » الذي يرى « ملاشاة قيم الأملاك بالضرائب » . على الرغم من إعتقاده أن هذه العمليـــة بحاجة لزمن طويل وأنها لن تتم الا اذا استولى الاشتركيون على الحكم [١] .

ثم ما هي القوة السياسية القادرة على التنفيذ ؟

يرى نقولا حداد « أن الاشتراكية ليست الا دمقراطية الحياة الاقتصادية » [٢] لذلك « فتنفيذ المبادىء الاشتراكية يجب أن يسبقه تنفيذ المبادىء الديمقراطية في الحياة السياسية » [٣]. ولكنه لا يوضح حقيقة هذه المبادىء ولا ما تعنيه في المجال السياسي الا أنه عندما يتحدث عن طريقة التنفيـــذ وقوة التنفيذ يجعلها « سياسية لا ثورية » [٤] أي أنها طريق النضال على المستوى البرلماني وتقوية النقابات أي طريق حزب

---

١ المرجع السابق ص ٧٩ .
٢ المرجع السابق ص ٥٥ .
٣ المرجع السابق ص ٥٥ .
٤ الاشتراكية – نقولا جداد ص ٨٠ .

العمال البريطاني مثلا .

النظام الاشتراكي والحرية

قامت محاربة الفكرة الاشتراكية على أساس أنها تعادي الحرية الفردية وتقضي على النبوغ والعبقرية ، وقد فند نقولا حداد مفصلا هذه التهمة في مقارنة طويلة . وقبل أن نقدم شيئاً مما جاء في هذه المقارنة نود أن نذكر أن نقولا حداد يبدأ من « أن النظام الافرادي نظام استعباد أفراد قليلين لجمهور والنظام الاشتراكي نظام مساواة في حقوق التمتع ومنع هذا الاستعباد [1] » .

ومن هـــذا القرار بدأت المقارنة بين النظام الافرادي والفكرة الاشتراكية . « فالنظام الاشتراكي يخير كل فرد في أن يشتغل أو يكسل ولا يضطر أحداً للعمل (وانمـــا يمنع الشحاذه والتشرد) بل يوجب على الحكومة أن تقبل كل عامـــل في دائرة عمله . على أنه معلوم فيه أن من يشتغل يعيش وبقدر ما يشتغل ينعم ، ومن يكسل يجع الا اذا كان عنده متوفر من قبل . وأما النظام الافرادي فلا يخير الأفراد في العمل بل يأذن لأفراد قلائل ان يحتكروا المستزرقات أو دوائر العمل ويتحكموا بالعاملين . ولهذا نجد كثيرين يقرعون أبواب الرزق فيجدونها مغلقـــة في

---

١ المرجع السابق ص ٦٧ .

وجوههم فيجوعون وهم أهل للعمل ويشقون وهم نشيطون. بل يأذن هذا النظام لأفراد أن يكسلوا ويتقاعدوا عن العمل وأن يخربوا ويدمروا بنيان الآداب والأخلاق وهم يتنعمون ويبذخون على حساب العاملين فبالله قل لي أي النظامين أشد تضييقاً للحرية الفردية ؟ .

النظام الاشتراكي يقضي بالعناية التامة في الصحة العمومية ويوجب انشاء مستشفيات على غاية من الاتقان للمعالجة والتمريض مجاناً على حساب المجموع ويجعل الجميع متساوين في حق الاستشفاء والتمتع بالوسائل الصحية (وليس في النظام الاشتراكي درجات أولى وثانية وثالثة) وأما النظام الافرادي فيقضي باختصاص طبقات دون طبقات بالعناية الصحية ما دام كل فرد يعنى بصحته على حسابه ولهذا ترى جمهوراً من الناس تهاجمهم الأمراض وتفتك فيهم اذ لا قبل لهم على الانفاق على المعالجة » [1]

وتستمر المقارنة هكذا مبينة ما يقدمه النظام الافرادي وما تقدمه الاشتراكية في مجال الحرية الشخصية. وهو لكي ينسجم مع منطقه الاشتراكي يذكر أن للحرية عند الاشتراكيين معنى غير معناها التنازعي في النظام «لافرادي» وأن الحرية في النظام الاشتراكي لا بد من أن تكون لها حدود . ان اقتناع نقولا حداد بالاشتراكية وبمقدرتها على تفجير المواهب الانسانية تصل المستوى الذي يجعله يقرر

---

١ المرجع السابق ص ٦٦ .

« ان النظام الاشتراكي أشد احياء للأعمال الخطيرة الكبيرة من النظام الافرادي » [1]

النظام الاشتراكي والارث

الارث مرتبط بالملكية فهو نتيجة حتمية لها في الشرائع القديمة والحديثة على الرغم من القيود التي فرضتها بعض القوانين عليه أحياناً، وعندما قرر نقولا حداد أن لا ملكية الا للأمة كان يضع الأساس لانهاء مشكلة الارث والذلك فهو عندما يبين حسنات المجتمع الاشتراكي يجعل انتفاء الارث أحدهمـــا وهو يقول في ذلك : « ينتفي الميراث بانتفاء الملكية ولا يرث الابن من أبويه الا حسن بنيته وعقله وأخلاقه وما فضل من النقد عندهما ولكنه يرث من الأمة كلها حقه في العمل والارتزاق وحمايته من الفقر والشقاء . [2]

التدرج في تطبيق النظام الاشتراكي

جعل نقولا حداد قوة التنفيذ سياسية لا ثورية وربط هذه القوة السياسية بالنضال البرلماني والنقابي . وهو يرى

---

١ المرجع السابق ص ٦ .

٢ المرجع السابق ص ٦٠ (٥٨–٦١) .

« ان تطوراً عظيماً كهذا (اي كتحقيق الاشتراكية) لا يمكن ان يتم دفعة واحدة بل لا بد من ان يتـــدرج في درجات متعددة مختلفة على حد تدرج الديمقراطية السياسية قبله [1] » . فالاشتراكية لا تتحقق الا بالمقدار الذي يتحقق من الديمقراطية ..

تناقضات هذا التفكير الاشتراكي

تفكير نقولا حداد الاشتراكي يبدأ — اقتصادياً — من الغاء الملكية الفردية ، وتحويلها الى ملك عام تدبره الدولة ولكنه من الناحية السياسية يقرر البرلمان كوسيلة لتحقيـــق النظام الاشتراكي وحمايته . ولكن هـــل يستطيع طريق البرلمان تحقيق الاشتراكية ؟ انه يرى ان تحقيق « ملاشاة قيم الاملاك بالضرائب » رأي هنري جورج — وهو الرأي الأقل تطرفاً من الاشتراكيين . يرى ان تحقيق مثل هذا الشكل من الاشتراكية يتطلب ان « تقع السلطة في أيدي الأحزاب الاشتراكية على ان لا تفلت منهم [2] » ولكـن من يستطيع أن يضمن ذلك ما دامت هنالك ديمقراطيـــة تقليدية وما دام هنالك تسلط مالي ؟ هذا ما لا يجيب عليه

---

١ المرجع السابق ص ٩٣ .

٢ المرجع السابق ص ٧٩ .

نقولا حداد .

والحقيقة ان الاشتراكية التي تلغي الملكية الفردية لا يمكن ان تنسجم مع النظام البرلماني الذي قام ليمثل الملكيـــة الفردية لا يمكن ان تنسجم مع النظام البرلماني الذي قام ليمثل الملكية الفردية والذي يظل ممثلاً للنظام المالي ما دام النظام المالي موجوداً . ثم ان نقولا حداد الذي يؤمن بما ذكرنا من المبادىء الاشتراكية يقول في حديثه عن ارتفاع مستوى الفرد الذي يحققه النظام الاشتراكي: « وترى نموذجاً لذلك في الولايات المتحدة الأميركية مع انهـــا لم تصر اشتراكية بالفعل . وكأنما من الممكن ان تصير اشتراكية او كأنها تتقدم خطوات نحو الاشتراكية .

الاشتراكية والشيوعية

عندما كتب هذا الكتاب كان عمر الثورة الشيوعية في روسيا ثلاث سنوات وعلى الرغم من ذلك ، وعلى الرغم من دعوة نقولا حداد لالغاء الملكية الفردية — وهذا مـــا تقول به الماركسية — على الرغم من كل ذلك فان نقولا حداد عندما يتحدث عن الاشتراكيـــين الثوريين يقول : « وربما كان البلشفيون اليوم من هذا الفريق اذا ثبت ان

عقيدتهم تتفق مع العقيدة الاشتراكيـــة القويمة [1] » . ولم يبين نقولا حداد الاسباب التي تجعله يشك في حقيقـــة الشيوعيين الاشتراكيين وان كان قد ابدى تخوفه من طريقتهم الثورية في تحقيق مبادئهم * .

---

* ليست في هذا الكتاب اية إشارة لأوضاع الامة العربية .

١ المرجع السابقق ص ٧٩ .

الباب الثاني

الشعر في عهد النهضة

مقدمة

أحدثت النهضة الاجتماعية والفكرية نهضة في الشعر انعكست فيما يلي :

أولاً : تحرر الشعر من مألوفاته كالابتداء بالغزل او بالبكاء على الاطلال وأخذ يزداد قوة وتماسكاً ويعتبر البارودي اول من عاد بالشعر العربي الى تماسكه وعذوبته .

ثانياً : أخذ الشعر يرتبط بقضايا الشعب وبمشاكل التحرر في العالم مما زاد في حرارته ووضوحه .

ثالثاً : حدث تغيير في استعمال الاوزان ولا سيما الرجز وزاد استعمال « المخمس » وغيره من أشكال الشعر التي ترفض الالتزام بقافية واحدة .

رابعاً : بدأت حركة الشعر المنثور عندما أخذ الشعر يصبح أكثر « فردية » .

الشعر في مراحل تطوره السياسي

١

نجد في الشعر ما نجده في النثر من دعوة للاصلاح وايقاظ للروح القومية ، وكما وجدنا في النثر الدعوة للاصلاح تتطور وتنمو نجدها في الشعر . وبما ان الشعر والنثر هما مظهران لحركة النهضة فانهما يحملان روحها ويمثلان اتجاهها فلا بدع اذا ظهر بالمراجعة والدرس ان القضايا التي عالجها النثر بلهجته وكتب فيها الادباء وعلماء الاجتماع بأساليبهم قد عاشها الشعراء وعبروا عنها تعبيراً دقيقاً جداً . ولتفاوت في مستوى الوعي كان هذا « التعبير الفني » عن روح النهضة يختلف في عمقه ووضوحه ما بين شاعر وآخر . وعلى الرغم من ذلك — وبعد تتبع لمعالم الاتجاه العام — نستطيع ان نميز ملامح ثلاث مراحل

فكرية :

الاولى : مرحلة الدعوة للخلافة والهتاف لانتصاراتها .. وتكاد تنتهي زمنياً بانتهاء القرن التاسع عشر [1] .

الثانية : مرحلة نشوء الجمعيات العربية السرية والعلنية . وهي مرحلة الدعوة للحكم الاتحادي واللامركزية . المرحلة التي تبلور فيها الفكر القومي .

الثالثة : مرحلة الاستقلال .

المرحلة الاولى

كثرت المؤامرات الاستعمارية على ممتلكات الخلافة في القرن التاسع عشر . وبدأت القوات الغازية تحتل مناطق من هذه الممتلكات بينما كانت الثورات القومية في اوروبة العثمانية تهدد الدولة باستمرار . ولهذا كله ولشعور الشعراء العرب بأن الرابطة العثمانية هي السياج الذي يحميهم من مستعمر جديد فقد أخذوا يعتبرون مناصرتها قضية عقائدية تستلزمها حياتهم وكرامتهم ، فليس غريباً إذا وجدنا شعراء مثل أحمد فارس الشدياق (١٨٨٧) وعبد الله النديم (١٨٩٦) وعلي اللبني (١٨٩٦) ومحمود البارودي

١ على الرغم من استمرار عدد من الشعراء كشوقي والرصافي في الدفاع عن الخلافة .

(١٩٠٤) وعبد المطلب وعبد الغفار الأخرس وابراهيم الأحدب وعبد الحميد الرافعي [١] وغيرهم يتغنون بالخلافة فرحين لانتصاراتها متألمين لهزائمها داعين لتأييدها ونصرتها

وشعراء هذه المرحلة ثلاث فئات :

الأولى : وكانت تكتفي بالمدح في المناسبات دون ان تهتم بموضوع الاصلاح ومن هؤلاء الامير عبد القادر الجزائري وناصيف اليازجي وشكيب أرسلان وسليم عنجوري ومدحهم تقليدي يمجه الذوق السليم . ومن ذلك مثلاً وهو لناصيف اليازجي [٢] :

خليفة الله ظل في خليقته
ظلت به تتقي الدنيا وتستتر
لا ترتضي غيره الدنيا لها ملكاً
لو كان جبريل يأتيها أو الخضر
إذا طلبنا من الباري لنا وطراً
فليس الا بقاه عندنا وطر

ومن ذلك أيضاً لشكيب ارسلان من قصيدة قالها في عيد الجلوس الهمايوني المأنوس سنة (١٩١٠) [٣]

١ أصبح عبد الحميد الرافعي شاعراً قومياً فيما بعد .
٢ وطنية شوقي ... الدكتور أحمد محمد الحوفي ص ٣٠٦ .
٣ وطنية شوقي ... الدكتور أحمد محمد الحوفي ص ٣١٤ .

أبدا بأمرك تصدع الأقدار
والى مقامك تنتهي الاقدار
وبعدل عزتك الليالي تنجلي
وبعصر عدلك تفخر الاعصار
تتنازع الايام فيك تباهياً
وتنافس الآصال والاسحار
جأرت بكنهك كل أرباب النهى
وأرى جديراً أنها تحتـــار
وتقاصرت عنها عزائم مدحهم
فطوال آيات الثناء قصار
ملك له خضع الزمان ورأيه
للحق ولي حملها المقـــدار
وخلافة دينية أعطاكها فوق العباد الواحد القهار

* * *

واحكم فانك ظل ربك في الورى
واقطع فأنت حسامه البتار
ولك النبي بكل أرض نصرة
ولك الاله بكل دار جار
لا زلت من رب الانام خليفة
لك ما تشاء لديه أو تختار

ويقول شكيب ارسلان في قصيدة أخرى [1]

فحبك ذا شرعي وعرفي ومذهبي
ومدحك ذا فرضي ووتري وواجبي

ومن ذلك لسليم عنجوري [2]

سل عنه مصرا والحجاز نجد له حسن الأثـــر
واعطف على الفيحاء تلق بها مآثره الغـــرر
ملأ البلاد عوارفـــا ومعارفا تحلو الفكر
وشرائعـــا وبدائعـــــا وصنائعـــا تحبو الوطر
هذا هو العـــلم الذي بصنيعه الدهر افتخر
هذا الذي أهدى الى الشـ ـرق الفـلاح المبتكر
هذا الذي غرس المنى وأكف ـــنا جنت الثمـــر

وعندما نراجع شعر هذا العهد نجد كثيراً من الدواوين الشعرية التي تحمل عناوين كالآتية : « المدائح السنية في شمـــائل الذات الحميدية » و « الذهب الابريز في مدح السلطان عبد العزيز » و « حيلة العصر الجديد في شمائل الملك الحميد » . ولقد عاش اكثر شعراء هذا العهد في ظل الخلافة شاكرين لها ما تغدقه عليهم .

الثانية : وهي الفئة التي رضيت بالخلافة والخليفة ولكنها لادراكها خطورة الموقف ولاحساسها بضرورة الاصلاح

---

١ المرجع السابق ص ١٦ .

٢ بدائع ماروت أو شهر في بيروت – سليم عنجوري ص ١٠ .

بدأت تطالب به لتحمي الخلافة نفسها من خطر محدق . ويلمع من شعراء هـذه الفئة أحمد شوقي وحافظ ابراهيم ومعروف الرصافي وجميل الزهاوي وغيرهم ولقد كان شوقي لا يختلف كثيراً عن شعراء الفئـة الأولى فهو اكثر ولعاً بالخلافة والخلفاء وتقديساً لها ولهم من أي شاعر آخر وقصائده التي قالها في انتصاراتها وهزائمها ملاحم طوال معروفة للجميع [1] ومن شعر شوقي في الخلافة : [2]

رضيَ المسلمـون والاسلام
فرع عثمان دم فداك الدوامُ
أمة الترك والعراق وأهلوه ولبنان والربا والخيـام
عالم لم يكن ليُنتظَمَ الاّ أنك السلم وسطه والوئام
وضع الشرق في يديك يديه وأتت من حماته الاقسام

ومن قوله سنة ١٩٠٥ في نجاة الخليفة [3] .

هنيئاً امير المؤمنين فانما نجاتك للدين الحنيف نجاة
هنيئاً لطه والكتاب وأمة بقاؤك إبقاء لها وحياة
فلولاك ملك المسلمين مضيع
ولولاك شمل المسلمين شتاتُ
لقد ذهبت راياتهم غير راية
لها النصر وسم والفتوح شياة

---

١ مجموع الأبيات التي قالها شوقي في الخلافة تأخذ حيزاً كبيراً من شعره
٢ وطنية شوقي – الدكتور أحمد محمد الحوفي ص ٣٢٩ .
٣ المرجع السابق ص ٣٢٩ .

ولقد سلك حافظ والرصافي والزهاوي السبيل عينه ومن شعر الزهاوي الذي يتغنى فيه «بالفتح الحميدي» نجتزىء ما يلي : [1] .

لسلطاننا عبد الحميد سياسة
طريقتها في المعضلات هي المثلى
سللت لنصر الدين سيف عزيمة
فللت به ما لم يكن فله سهلا
فجهزت جيشاً للجهاد عرمرما
هزمت به ذاك العدو الذي ولّى
نهنيك بالفتح المبين الذي به
تسامى منار للشريعة واستعلى

وعلى الرغم من هذا فالزهراوي نفسه يجد بعد تأمل أن الدولة التي يغنيها ليست الا «دولة همجية» لا يمكن اصلاحها . وقد عبر عن ذلك في قصيدته «حتّام تغفل» التي قالها عندما كان في الاستانة [2]

وما رابني الا غرارة فتية
تؤمل اصلاحاً ولا تتأمل
وكم وعدوا أن يصلحوا قبل هذه
فما بالهم زادوا فساداً وأوغلوا

---

١ ديوان الزهاوي – جميل الزهاوي ص ٦ .
٢ المرجع السابق ص ٨ .

لك الله كم ترجو حياة لدولة
ترى كل يوم أمرها يتعرقل
تعلل بالآمال نفسك راجياً
نجاحاً لها لو كان يجدي التعلل
وما هي الا دولة همجية
تسوس بما يقضي هواها وتعمل
فترفع بالأعزاز من كان جاهلا
وتخفض بالاذلال من كان يعقل
فمن كان فيها أول فهو آخر
ومن كان فيها آخر فهو أول

وللرصافي شعر مثل هذا في نقد الدولة وسياستها ولكن الرصافي — على الرغم من نقده المستمر واللاذع أحياناً — ظل عثمانياً حتى النهاية كشوقي وحافظ بينما تحول الزهاوي الى صف الاتجاه القومي العربي *.

الفئة الثالثة : هذه الفئة قليلة ولكنها كانت بدء حركة اكتملت عند اعلان الثورة العربية الأولى ، شهرت بالدولة العثمانية لطغيانها ولعدم انصافها العرب وأعربت عن يأسها في أية امكانية للاصلاح . من شعراء هـذه الفئة سليم

* حتى ان الرصافي هاجم المؤتمر العربي قائلا :
هل يأمن القوم أن يحتل ساحتهم جيش يدك من الشام الأهاضيبا
يا أيها القوم لا يغرركم نفر ضجوا بباريس افساداً وتشغيبا
فسوف يقرع كل سنه ندما ونسبل الدمع في الخدين مسكوبا

سركيس صاحب جريدة « المشير » ورزق الله حسون .
قال سليم سركيس : [1]

نرجو صلاح الترك قد خابت أمانينا الكواذب
هي دولة ظلمت وليس العدل عن ظلم بذاهب
فانشد معي قولا تردده المشارق والمغـارب
ليس العجيب بفقدها بل عيشها احدى العجائب

وقال رزق الله حسون : [2]

كم حروب للروس دارت على الترك رحاها فغادرتهم طحينا
علم الروس يخفق اليوم فوق القرص ولى الاتراك في الغابرينا
هكذا هكذا تدور على الباغي (الدوائر) ويهلك المجرمونا **
ما عليهم لو عاملونا بحسنى وتساو أو أنهم أنصفونا

وهكذا بينما نرى في ابيات سليم سركيس قناعة بضرورة زوال الامبراطورية العثمانية لأنها ظلمت نرى في أبيـات رزق الله حسون شماتة بهزيمة الأتراك وانتصار اعدائهم الروس لا لسبب ألا لأن الاتراك لم يعاملونا بحسنى ولم ينصفونا .

المرحلة الثانيـة : في العقد الأول من القرن العشرين كانت معالم الاتجاه القومي تتكون . ذلك أن المنظمات التي

---

١ العوامل الفعالة في الأدب العربي الحديث – أنيس المقدسي ص ٦ .
٢ المرجع السابق ص ١١ .
** يجب أن تكون « الدواهي » حتى يستقيم الوزن .

كونت في النصف الاخير من القرن التاسع عشر والكتب التي ألفت والمقالات التي كتبت كانت كلها تهيء الأذهان لميلاد الفكر القومي وعندما أعلن الدستور أصبحت دعوة العرب للاصلاح والمساواة دعـــوة للحكم اللامركزي أو الاتحادي. ولما لم يف الاتراك في ظل حكم جماعة « الاتحاد الترقي » بوعـــودهم في انصاف العرب ، ولم يسمحوا « للعناصر العثمانية » بالاشتراك في الحكم بل قاوموها — ولا سيما — الأمة العربية — واضطهدوا أحرارها غلبت على الشعر العربي نزعة الشكوى والتظلم ثم نزعة الاحتجاج القاسي فالدعوة الى التصافي والاخاء. وسأقدم فيما يلي ثلاثة نماذج من الشعر :

الأول : شعر الفرحة الدستورية :

قال خليل مطران من قصيدة بعنوان الدستور العثماني [1]

يا أيها ذا الوطن المفدى تلق بشرا وتملى سعدا
كنا على الاصفاء أحراراً سوى
أن الزوايا ألزمتنـــا حسدا
كنا نجيش من وراء عجزنا كمتوالي الماء لاقى سدا
حتى تدفقنا الى غايتنا تدفق الأتي أو أشدا
وكل شعب كاسر قيوده
بالحق ما اعتدى ولا تعدى

---

١ ديوان الخليل — خليل مطران — الجزء الثاني — ص ٥٣-٥٥ .

قد زعموا الشورى لنا مفسدة
على صلاحها أقالوا جدا ؟
وهل أزلنا مستبداً واحدا عنا كدعواهم لنستبدا
في كل شعب كثرت أجناسه
لا شيء كالقسط يعون العقدا
تشاركوا في الحكم واختاروا له
خيـــار كل ملة يستبدا

وقال حافظ ابراهـــيم في عيد الدستور العثماني سنة ١٩٠٩ [١]

أجل هـــذه اعلامه ومواكبه
هنيئاً لهم فليسحب الذيل صاحبه
هنيئاً لهم فالكون في يوم عيدهم
مشارقـــه وضاءة ومغـــاربه
رعى الله شعباً جمع العدل شمله
وتمت على عهد الرشاد رغائبه
تحـــالف في ظل الهلال إمامه
وحاخامه بعد الخلاف وراهبه

* * *

خذوا بيد الاصلاح والأمر مقبل
فاني أرى الاصلاح قد طر شاربه

١ ديوان حافظ ابراهيم – حافظ ابراهيم ص ٤٣–٤٦ الجزء الثاني .

وردوا على الملك الشباب الذي ذوى
فاني رأيت الملك شابت ذوائبه
فمن يطلب الدستور بالسوء بعدما
حمته يد الفاروق فالله طالبه

وقال شوقي في المناسبة نفسها : [1]

بشرى البرية قاصيها ودانيها
حاط الخلافة بالدستور حاميها
لما رآها بلا ركن تداركها
بعد الخليفة بالشورى ونادبها
أسدى اليها أمير المؤمنين يدا
جلت كما جل في الاملاك مسديها
بيضاء ما شابها للأبرياء دم
ولا تكدر بالآثام صافيها

* * *

الرأي رأي أمير المؤمنين اذا
حارت رجال وحلت في مراميها
وانما هي شورى الله جاء بها
كتابه الحق يعليها ويغليها
أما ترى الملك في عرس وفي فرح
بدولة الرأي والشورى واهليها

١ وطنية شوقي – أحمد محمد الحوفي ص ٥٩–٦٠ .

لما استعدلها الأقوام جئت بها
كالماء عند غليل النفس صاديها
يا شعب عثمان من ترك ومن عرب
حياك من يبعث الموتى ويحييها
نلت الذي لم ينله بالقنا أحد
فاهتف لانورها وأحمد بغازيها

عند مقارنتنا لهذه « المقطوعات » نجد أن مطران ربط نيل الدستور بنضال الشعب الذي وصل الى غايته ـ واستنكر بتهكم دعاوي الزاعمين بأن الشورى لا تصلح لنـــا ودعا بحكومة تنسجم مع أوضاع الامبراطورية العثمانية القومية ؛ بينما نجد حافظ كشوقي يجعل الدستور هبة من السلطان الذي انتظر حتى شعر أن لدى رعيته الاستعداد فمنحها الشورى، قال حافظ [1]

راعيتهم حتى علمت بأنهم بلغوا أشدهم على الأزمان
فجعلت أمر الناس شورى بينهم
وأقمت شرع الواحد الديان

هذا بالاضافة الى أن شوقي وحافظ قد ربطا الشورى بالشريعة الاسلامية بينما لم يفصل ذلك خليل مطران .
الثاني : شعر الشكوى والتظلم والاحتجاج والدعـــوة

---

١ ديوان حافظ ابراهيم – الجزء الثاني ص ٤٤ .

للتصافي [1] قال فؤاد الخطيب من قصيدة بعنوان ، «آمال وآلام »

فأنتم بين أيدي الترك لا وطن
لكم ولكن أصحاب البلاد هم
أين الوزارة بل أين الولاية بل
أين الاخاء وأين العهد والقسم
جاروا على لغة القرآن فانصدعت
له القلوب وضج البيت والحرم
فالقدس باكية والشام شاكية
وفي الحجاز يكاد الركن ينحطم
والشرق يضؤل والاهواء تحزنه
فليت شعري أعرب فيه أم رمم

* * *

بالله يا حكماء الامنـــين أما
من ألفة ترتجى والشمل منفصم
إني أرى الداء يستشري فان صدقت
عنه الأساة فقولوا كيف ينحسم
أكلما حاول العرب الرقيّ غلت
في الترك شكوى وقالوا فتنة عمم

---

١ ديوان الخطيب – فؤاد حسن الخطيب ص ٢٤–٢٧ .

لا تأخذوا بأراجيف العدى وبما
يجري به الوهم أو يأبى به الحلم
تأبى الخلافة الا ان تكون لها
دار السعادة مغنى فيه تغتنم
وآل عثمان أولى من يقوم بها
لا بارك الله فيمن خان عهدهم
العرب تشكرهم والدين يؤثرهم
والله ينصرهم والعهد والذمم
وما الليالي وان جارت تفرقنا
لسنا واياهم في الله نختصم
لكننا نطلب الحق الذي هتفت
له المساواة والأحكام والحكم
ان قام في اليمن الثوار أو نقضوا
عهدا أكل فتى في العرب محترم
فاقضوا ولا تحرجونا أن نقول لكم
أين العدالة في أحكام شرعكم ؟

* * *

وقال : من قصيدة « الى صاحب اقـدام » وهي جريدة تركية تهجمت على العرب [1]

---

١ المرجع السابق ص ٤٨ .

يا عصبة في بلاد الترك طاغية
لا تحسبوا العرب في اوطانهم رمما
ان الزمان الذي اولاكم نعما
هو الزمان الذي نرجو به نعما
وهذه صحف التاريخ ناطقة
بفضلنا فاسألوا الرومان والعجما
وطالعوا صادة الآثار واجتنبوا
يوما نطبق فيه السهل والعلما
ولا تظنوا هموم الدهر تقعدنا
إن الهموم ستحبي بيننا الهمما
يا أيها الترك اني لا اقول لكم
غيرتم تلكم الأخلاق والشمما
عشنا معاً أمد الدهر الطويل فلم
نذمم جوارا ولم تألوا بنا كرما
فلا تخافوا فتى اقدام يقبضنا
عنكم فلسنا نبالي منه ما زعما
ما كل مستترك يغلو بنزعته
يكون من اجله التركي متهما
يأبى الاخاء لنا الا مصافحة
فصافحونا وصونوا العهد والذمما

* * *

وقال الشاعر القروي – والحديث عن الدستور [1]

جاءت فكبرنا وشق هتافنا قلب الضباب تيمناً بالجائي
ودعا الفقير لها وسماها اخو (م) البؤس الشديد بأعذب الاسماء
حتى اذا فتر التحمس وانجلى
صبح الحقيقة عن دجى الضوضاء
نادى فلم يجد الندا ودعا فما لباه غير تجاوب الاصداء

وقال الرصافي عندما تنكر عبد الحميد للدستور [2]

تربع في صدر الوزارة كامـــل
فخط من النقصان في وجهها حرفا
لقـــد أغضب الدستور فعلا ونبه
ومن أعلنوا الدستور والشعب والصحفا
فيا أيهـــا الصدر الجديد اتعظ به
فاياك أن تطغى وأن تثني العطفا
ويا مجلس النواب سر غير عاثر
الى المجد لا تلقى كلالا ولا عطفا

الثالث : شعر العروبة . عند اعـــلان الدستور كان شعراء العرب ، حتى الذين ظلوا عثمانيين – يعتبرون ان الدستور وثيقة تعترف بوجودهم كأمة ولذلك فالشعر يخاطب العرب والأمة العربية وهو اذا كان يدعوهم للاندماج مع

---

١ العوامل الفعالة في الأدب العربي الحديث – راتب المقدسي ص ٤٨ .
٢ وطنية شوقي – أحمد محمد الحوفي ص ٦٢ .

الاتراك تحت ظل الرابطة العثمانية فانما يدعوهم كأمة لهـــا كيانها وتاريخها وقد ظهر هذا واضحاً في شعر فؤاد الخطيب الذي رد فيه على صاحب (إقدام) كما ظهر في شعر كثيرين غيره .

من هذا الشعر الذي يخاطب الامة العربية أبيات لخليل مطران قالها سنة ١٩٠٨ [١]

داع الى المجد القديم دعاك
فاستأنفي في الخافقين علاك
يا أمة العرب التي هي أمنا
أي الفخار نميتـــه ونمـــاك
يمضي الزمان وتنقضي أحداثه
وهواك منا في القلوب هواك
إنا نقاضي الدهر في أحسابنا
بالرأى لا بالصارم الفتاك
وملاك شيمتنا الوفاء فإنه
لسعادة الاقوام خير ملاك
آمالنـــا آلامنـــا ارواحنا أشباحنا يوم الفداء فداك
بالعلم ننشر ما انطوى من مجدنا
وبه نزكي في الورى ذكراك

المرحلة الثالثـــة : مرحلة الاستقلال ، كان ابراهيم

١ ديوان الخليل (ج ٢٠) خليل مطران ص ١ .

اليازجي قد أثار مسألة استقلال العرب في شعره في أول النصف الثاني من القرن التاسع عشر . وقصيدتاه « تنبهوا واستفيقوا أيها العرب » و « دع مجلس الغيد الاوانس » معروفتـــان . وكان من رأيه أن « الخطب قد طمى قد غاصب الركب » وأن الترك لا يفوز لديهم الا المشاكس. ويبدو أن الشعر لم يصل الى هذا المستوى من وعي القضية القومية الا بعد نصف قرن وبعد ان انكشف عجز الدستور عن معالجة مشاكل الامة ولا سيما فيما يختص بعلاقة الاتراك بالعرب. وقد ساعد على بلورة هذا الوعي استبداد الاتراك وانفرادهم بالحكم واضطهادهم للعرب . ولم تثر ثائرة العرب الا بعد الحرب عندما اعدم الاتراك نخبة من احرار العرب في دمشق وبيروت وعلى هذا فشعر الاستقلال قسمان :

الاول : شعر ما قبل الثورة العربية الاولى وهو يحض العرب على الثورة والانتقام .

الثاني : شعر الثورة العربية الاولى الذي يتغنى بهـــا وبقائدها الشريف حسين وبأمجاد الامة العربية .

قال عبد الحميد الرافعي في حض العرب على الثورة [1]

هبوا بني العرب إلام الكرى
وقد دهـــا الآمال دهاسها

---

١ العوامل الفعالة في الأدب العربي الحديث – أنيس المقدسي ص ٧٥ .

طلبتم الاصلاح من عصبة
تُوتّرُ بالافساد اقواسها
فكم تقيمون على ذلة وروضة الصبر ذوى آلها
ألستم نسل القروم الاولى تنتعل الهلفات افراسها
فجردوا العزم الذي طالما شق صدورا طال وسواسها

وقال محمد ناجي جم الطرابلسي في الشريف حسين من قصيدة بعنوان يا بنت يعرب : [1]

يا بنت يعرب والزمان مشوّه
وكما علمت برزئه يرميك
هلا صرخت بمليء فيك إغاثة
بابن الهواشم مالكي ومليكي
ذاك الحسين بن المضاء أخو الحجى
سند القومي وموئل الصعلوك
قد سار فينا للمعالي سالكا
بطريق حكمته أجل سلوك

بعد الحرب العظمى الاولى

شعر العرب بعد الحرب ان الحلفاء غير جادين في تحقيق وعودهم فانصب الشعر على المطالبة بتحقيق مبادىء

---

١ ديوان الوطنيات محمد ناجي الجم الطرابلسي ص ٦ .

ولسن وحض العرب على رفض التجزئة والمحافظة على الاستقلال بقيادة الحسين .

قال عبد المحسن الكاظمي :

يا ايها العُرْبُ وأدعوا العُرْبَ انّى وجدوا
لئن تشاءوا ان تراحوا من عناء فاجهدوا
هـــذا مجـال للكماة فاوهدوا او فانهدوا
حلبتمـــوه مـــدة فـــلم تجده المدد
ألستموا من حرموا حقوقهم واضطهـــدوا
وكلما حسن لهم ذكر الحمـــى تنهـــــدوا
اما كفاكم حافزا ذكر الذين استشهدوا؟

* * *

اخاف يا صبح المنى يغشاك ليـــل اربد
وان يقال مطلقونا من عقـــال قيـــدوا
كيف تحل عقده حلالهـــا المعقـــد
قيل سلام ثابت بين الورى يوطـــد
هـــل يثبت السلم على مطـــامع يستند
اقول والقول شجٍ وذاك ما اعتقـــد
ما ساد حق وذوو الباطل فينا سوّد

---

١ قصائد الكاظمي – عبد المحسن الكاظمي ١٩ حزيران سنة ١٩١٩، ص ٦–٧ .

وقال في قصيدة له بعنوان « الى جناب الدكتـــور ولسن » [1]

الحرب سلم ان شروطك نفذت
من غير تعديل ولا تغيير
والسلم حرب ان تحيز ذا لذا
او سير للغايات شر مسير

* * *

ابناء يعرب لا يرعكم خاذل
فرئيس ذاك الشعب خير ظهير
لا تجعلوا اوطانكم وبلادكم
مغدى بزاة او مراح نسور
لا تتركوا التأخير يعبث بينكم
النجح آفته من التأخير

وقال خير الدين الزركلي في الحض على مقـــاومة التجزئة : [2]

فيم الونى وديار الشام تقتسم
اين العهود التي لم ترع والذمم

---

١ المرجع السابق ص (١٧–١٨)

٢ العوامل الفعالة في الادب العربي الحديث– انيس المقدسي سنة ١٩١٩ ص ٩٤ .

وقال الغلاييني في الحض على مقاومة الاحتلال

هبوا فأمتكم امست على خطر
جاءَت عليها الاعادي جور منتقم
حتى تسيل ربوع الشام مفعمة
دما يسيل الردى في سيرة العرم
وذمة العرب والايام شاهدة
لنضر من الوغى في السهل والعلم
حتى يخلوا بلاد العرب اجمعها
من ساحل الروم حتى ساحل العجم

وقال الشاعر القروي في (وعد بلفور) [٢]

الحق منك ومن وعودك اكبر
فاحسب حساب الحق يا متجبر
تعد الوعود وتقتضي انجازها
مهج البلاد خسئت يا مستعمر
عد من تشاء بما يشاء فإنما
دعواه خاسرة ووعدك اخسر
فلقد نفوز ونحن اضعف امة
وتؤوب مغلوباً وانت الاقدر

---

١ المرجع السابق ص ٩٤ .
٢ الاعاصير – رشيد سليم الخوري ص ٧١ .

لكم التجارة بالرهينة والربا
لا ان تبيعوا العالمين وتشتروا
يدعوك شعبك يا صلاح الدين قم
تأبى المروءة ان تنام ويسهروا
نسي الصليبيون ما علمتهم
قبل الرحيل فعد اليهم يذكروا

* * *

لا يخـــدعن بنيك انا امة
صبرت فليس بميت من يصبر
تتغير الاجرام في افلاكها وصفاتنا الغراء لا تتغير
فاذا اناخ بنا الزمان فانما
عرض ازيل ولم يمس الجوهر

الشعر والطائفية

٢

اذا كان الشعر قـــد عبر عن أماني الشعب بالفرح بالدستور ثم بحَثّ العرب على الدفاع عن كيانهـــم إزاء مؤامرات الاتراك والحلفاء فقد عبر ايضاً عن نقمة الطليعة على التعصب الطائفي وهناك شعر كثير قبل الدستور وبعده بين الروابط التي تجمع العرب ويجعـــل الدين صلة بين الارض والسماء .

قال الياس فياض من قصيدة بعنوان « ذكرى واعتبار[1] » سنة (١٩٠١) :

بني الشرق هل من ذلك النوم يقظة
ترجى وهل يجدي بتنبيههم شعري

---

١ ديوان الياس فياض ص ٣٧ .

أفيقوا بني أمي فقد طـــال ليلكم
ولا تجعلوا إصباحكم موعد الفجر
أيجمعنـــا جنس وولسن وموطـــن
ويفرقنا وهم تحـــكم في الفكر
أأرغب بالصيني دينـــاً وأزدري
أخي وابن جنسي ؟ آهِ ذلك من أمر

وقال من قصيدة بعنوان « صرخة فؤاد » سنة (١٩٠٣) :

أأخواننا لا تجعلوا الدين فاصلاً
فما الدين الا رابط الارض بالسماء
وما نحن الا بعض ذي الارض هل لنا
بأن نتولى نقض مـــا الله أبرما
فـــلا تسمعوا قساً بشر مسربلاً
ولا تسمعوا شيخـــاً بسوء معمما
كفى جامعاً هـــذا اللسان يضمنا
إليـــه سواء عيسويـــاً ومسلما

وقال شوقي يدعو للتسامح سنة (١٩٠٨) [١] :

الدين لله من شاء الإله هدى
لكل نفس هوى في الدين داعيها

---

١ المرجع السابق ص ٤٠ .

ما كان مختلف الاديان داعية
الى اختلاف البرايا او تعاديها
الكتب والرسل والاديان قاطبة
خزائن الحكمة الكبرى لواعيها
محبة الله أصـــل في مراشدها
وخشية الله أسمى في مباديهـــا
وكل خير يلقى في أوامرهـــا
وكل شر يوقى في نواهيهـــا
تسامح النفس معنى من مروءتها
بل المروءة في أسمى معانيها

وقال ولي الدين يكن من قصيدة بعنوان « يا شرق[1] » :

أبني المسيح وأحمد انتبهـوا
ودعوا رجالاً منكم هجعوا
جاءوا الورى والامر ملتئم
ثم انثنوا والامر منصدع
لم يرض أحمد والمسيح بما
صنعوا فلا ترضوا بما صنعوا
أرواحكم من بعضهـــا قطع
وجسومكم من بعضها بضع

---

١ ديوان ولي الدين يكن ص ١٥ .

لا تحسبن خلافكم ورعـاً
إن ائتلافكم هـو الورع
الملك تعليـه مدارسـه
تلك المساجد فيـه والبيع
ويحب تمـوز لعاشره
لا تذكر الآحاد والجمـع

الشعر والاصلاح والمدنية

٣

اشترك الشعراء في تهيئة الاذهان لقبول الاصلاح وفي التحريض على رفض الظلم والهوان وكان البارودي طليعة في هذا المجال . قال وهو في الحرب سنة (١٨٩٤) داعياً لخلع نير الهوان متذمراً من الخمول [١] .

فيا قوم هبوا انما العمر فرصة
وفي الدهر طرق جمة ومنافع

أصبراً عـــلى مر الهوان وانتم
عديد الحصى اني الى الله راجع

---

١ ديوان البارودي – محمود البارودي ص ٣١٥–٣١٨ .

وكيف ترون الذل دار اقامة
وذلك فضل الله في الارض واسع
أراها رؤوساً أينعت لحصادها
فأين ولا أين السيوف القواطع

* * *

أهبت فعاد الصوت لم يقض حاجة
اليّ ولبّاني الصدى وهو طائع
فلم أدر ان الله صور قبلكـــم
تماثيل لم يخلق لهـــن مسامع

وقال يذم سيرة الحكام ويحض على طلب الحرية في عهد اسماعيل [1] :

كم بين منتسب يدعو لمكرمة
وبين معتكف يبكي على طلل
فما وجدت عـــلى الايام باقية
أشهى الى النفس من حرية العمل
لكننـــا حرّض للشر في زمن
أهل العقول به في طاعة الحمل
قامت به من رجال السوء طائفة
أدهى على النفس من بؤس على ثكل
من كل وغد يكاد الدست يدفعه
بغضاً ويلفظه الديوان من ملـل

---

١ المرجع السابق ص ٢٢٧–٢٥٣ .

ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت
قواعد الملك حتى ظل في خلل

* * *

بئس العشير وبئست مصر من بلد
أضحت مناخاً لاهل الزور والخطل

أرض تأثل فيها الظلم وانقذفت
صواعق الغدر بين السهل والجبل

وأصبح الناس في عمياء مظلمة
لم يحظ فيها امرؤ الا على خطل

فبادروا الأمر قبل الغوث وانتزعوا
شكالة الريث فالدنيا مع العجل

وقلدوا أمركم شهماً أخا ثقة
يكون ردا لكم في الحادث الجلل

ماضي البصيرة غلاب اذا اشتبهت
مسالك الرأي صاد الباز بالجمل

* * *

وطالبوا بحقوق أصبحت غرضاً
لكل منتزع سهماً ومختتل

ولا تخافوا نكالاً فيه منشأكم
فالحوت في اليم لا يخشى من البلل

ولما كانت أزياء المدنية الغربية تتدفق على بلادنا فقد كان للشعر — كما كان للنثر — موقف منها .

قال سليم عنجوري مـــن قصيدة بعنوان « التمدن » سنة (١٨٨٦) [١] :

ليس بدعاً ان جاء جل خطابـي
باحثـــاً في حقيقـــة المدنيـــة
انما العيش للأنام ممـــات
دون أخذ بناصر الوطنيـــة
ومبان تولي النفوس ارتياحاً
ومباد تحيـي القلوب الذكية
أكثر الناس بالتمدن لهجاً
وتعدوا أحكامه المعنويـــة
ولجوه من باب قصف ولهو
وتناسوا شروطه الجوهريـة
ظن قوم ان التمدن سهل
لا ورب الوجود باري البرية
قل لمن جاء يجتني منه شهداً
دون ذا الشهد لسع نحل الخلية
فاجزل الصبر والعق الصبر واثبت
لتنـــال المحاجـــة العسلية
ضاق باب الدخول حيث تؤدى
لطريق السعادة الأبديـــة

١ بدائع ماروت أو شهر في بيروت – سليم عنجوري ص ٩٨ .

وكذلك الطريق اكثر ضيقاً
لبلوغ السعـــادة الدنيويـــة

ولقـــد اشترك الشعر في إثارة بعض القضايا الوطنية الفكرية كما اشترك في اثارة قضايا الحرية في العالم . من ذلك شعر خليل مطران في « حرب البوير » وقصيدتـــه المعنونة « فتاة الجبل الاسود » . وشعر حافظ في النهضة اليابانية وشعر فؤاد الخطيب في إعدام الاشتراكي الاسباني « فرر » .

الباب الثالث

مُلاحظات عامة

مما تقدم يمكن استنتاج ما يلي :

اولا ـ ان حركة الدعوة للوحدة بدأت مع الدعوة للاصلاح وان الاصلاح بدأ على شكل تنظيمات اقتضتها ظروف داخلية وخارجية ثم على شكل دعوة عامة لاصلاح يشمل الامبراطورية واخيراً اقترنت الدعوة للاصلاح بالدعوة للامركزية . وقد اشترك في الدعوة للاصلاح وفي العمل من اجله مصلحون من العرب والاتراك ، كما اتفق نفر من العرب مع نفر من الاتراك في الدعوة لنظام اللامركزية .

ثانياً ـ ان حركة الوحدة اقترنت بنشاط تنظيمي مثل الجمعيات السرية والعلنية في داخل الامبراطورية العثمانية

وخارجها وان هذا النشاط ارتبط بحركة فكرية وادبية عملت على الكشف عن التراث العربي وتحرير اللغة العربية من ادران عصر الانحطاط ثم عملت على ابراز وحدة العرب القوميـــة والدعوة لها . على الرغم من وجود دعوات اخرى اقليمية ودينية تلتقي مع هذه الدعوة في بعض شعاراتها .

ثالثاً — ان دعاة الاصلاح كانوا ثلاث فئات ، الأولى ترفض الحضارة الغربية وتدعو الى احياء التراث الاسلامي، الثانية تدعو لاقتباس الحضارة المادية وتعمل من اجل ذلك. الثالثة تدعو لاحياء التراث القومي والديني وتعمل لاقتباس ما هو نافع من الحضارة الغربية . وقد انتصر التيار الثاني بانتصار الاستعمار وسيطرة عملائه بينما ظلت الفئة الثالثـــة تناضل حتى اليوم في سبيل توضيح مفاهيمها وكسب التأييد الشعبي لها .

رابعاً — ان التفكير الاشتراكي كان ضحلا قبل الحرب وان نقد الفكر الاشتراكي كان في نفس المستوى من الضحالة .

خامساً — ان هذه الدعوات الاصلاحية لم تعمل الى مستوى المنهج والمذهب وان هذه التنظيمات السرية لم تترك آثاراً تشكل رصيداً للعمل التنظيمي فيما بعد .

سادساً — ان الحركة — :

ا — لم تكن عامة — فعلى الرغم من انها كانت حركة

قومية ـ فلقد جعلت القضية محصورة بالمشرق العربي ، صحيح ان الاحزاب العربية عندما كانت تدعو لنظام اللامركزية مثلا كانت تعني المغرب العربي ولكن المغرب العربي لم يدخل عملياً في غمرة النضال من اجل اللامركزية او الوحدة القومية وان كثيراً من الدعوات وآخرها دعوة الشريف حسين جـاءت منحصرة على جزء من المشرق العربي . ولقد جاء في كتاب نجيب عازوري الذي أسماه « يقظة الأمة العربية في آسيا » انه لا بد من « انفصال الولايات العربية عن الدولة العثمانية على ان تكون الحجاز مقراً لخلافة اسلامية عربية وان تتكون من العراق وسوريا ولبنان وفلسطين دولة عربية موحدة عصرية » [1] وفي نفس الوقت الذي كانت فيـه الجماهير العربية تستقبل جيش الثورة العربية في الشام كان كثير من العرب غير مؤمن بها ، ويعتقد انها خروج على الولاء للسلطان وقد روى امين الريحاني في كتابه ملوك العرب القصة التالية ـ والمتحدث فيها جندي من سلطنة الحواشب رافق مع تسعة آخرين الريحاني خلال رحلته الى اليمن ـ قال الجندي : العفو يا امير حضرتك من الشام ؟ يقول الريحـاني : اجبت بالايجاب . قال الجندي : وهل راضية الشام بالسلطان ؟ يقول الريحاني اخبرته ان حكم السلطان فيها قد انتهى فساء سره الخبر وقال السلطان رجل طيب يا امير ما فيه مُر ،

---

١ محاضرات في نشوء الفكرة القومية ساطع الحصري ١٧٥

ويذكر الريحاني ان الجندي قال بأنه يحب الاتراك [1].

لهذا فقد ارتبط حسين بالثورة يؤيده بعض العرب بينما تخلف الامام يحيى حميد الدين وتخلف الملوك والامراء الآخرون كعبد العزيز بن سعود والادريسي لأسباب اخرى.

وبينما كان مصلحون عرب كمحمد كردعلي يتعاونون مع الاتراك وشعراء كالرصافي يهاجمون المؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس كان الاتجاه في مصر اسلامياً عثمانياً يتجه نحو الاقليمية . يقول كلوفيس مقصود : « اما في افريقيا العربية وخاصة في مصر فكانت الحركة القومية المعادية للاستعمار تهدد لأسباب سياسية كما يتضح لنا من مراجعة تاريخ مصطفى كامل ومحمد فريد والحركة التي تزعماها بالتقارب مع الدولة العثمانية وهكذا نرى ان الوعي القومي عندما ظهر في الامة العربية قبل الحرب العالمية الاولى ظهر بشكل يعوزه الانسجام والتنسيق مما ادى الى التفاوت النوعي بين الجزئين الافريقي والآسيوي والى فقدان اي ارتباط في الحركات القومية التي ظهرت آنذاك . وبينما كان اتجاه النضال في مصر وفي المغرب اسلامياً ، كان في المشرق عربياً . ولعل نوع المستعمر هو الذي فرض هذه التجزئة ، ففي المشرق كان الاستعمار باسم الخلافة الاسلامية مما ايقظ الوجدان العربي بينما كان الاستعمار في المغرب ومصر مرتبطاً بدول مسيحية سبق

---

١ ملوك العرب ، أمين الريحاني ، الجزء الثاني ٩٤ .

ان حاربت العرب باسم الصليب ولقد كان عرب المغرب بحاجة الى الدولة العثمانية في نضالهم ضد الاستعمار » [1]

ب ـ لم تكن عميقة : فلقد كانت مبهمة في أسسها واهدافها فهي تنادي بالاصلاح ولكنها لا تحدد بالضبط الاصلاح الذي تريد واذا حددت كان التحديد في منتهى البساطة و « العمومية » . وهي تنادي بوحدة الامة العربية في الوقت الذي تفرح بالدستور لأنه يرأب الصدع القائم بين الاتراك والعرب وتدعو الى نظام اللامركزية . وعلى الرغم من انها كانت حركة نضاليـة ـ في مظهر من مظاهرها ـ تقوم على التنظيم السري « الدقيق » فقد قبلت التنازل للشريف حسين موكلة اليه قيادتها على الرغم من غموضه ومن التنازلات التي رضي بها . ومنشور الاستقلال دليل واضح على مدى عمق الحركة وشمولها ، فهو اسلامي في روحه ولكن في مستوى ضحل وهو رجعي على الرغم من ان دعوة الوحدة كانت مرتبطة بالاصلاح . ولابهام الحركة وغموضها فقد كان يدخل صفوفها المناضل والخائن المؤمن بالوحدة وغير المؤمن .

انها كانت مجرد محاولة للتخلص من اضطهاد طويل .

سابعاً ـ طبيعة القيادة : ان القيادة كانت تشكل من فئة من المثقفين الذين انحدروا من عائلات اقطاعيـة او عائلات لها مركز في الدولة فاستطاعوا لذلك ان يذهبوا

---

١ نحو اشتراكية عربية ، كلوفيس مقصود .

الى الاستانة وباريس للدراسة . وهناك التقوا حول مائدة الفكر الغربي ليلمسوا التأخر الذي تعيش فيه بلادهم ولينهلوا من هذا الفكر كل تناقضاته وعندما طرحوا قضية الاصلاح كان يؤيدهم وجهاء ورجال الدين الاحرار وقد عمل هؤلاء فيما بعد تحت قيادة الشريف حسين .

وقيادة من هذا النوع صلتها بالشعب هزيلة جداً ، وتركيبها أهزل ـ لاختلاف في الاهداف والدوافع ـ لا يمكن الا ان تكون عاجزة عن قيادة النضال في سبيل قضية هامة وخطيرة كالوحدة العربية .

انتهى

الفهرست

	صفحة
مقدمة	٥
الثورة في اوروبا خلال القرن التاسع عشر	٧
عوامل الثورة في البلاد العربية	١٢
الثورة الدينية	١٧
التيار الديني ، نشأته وبعض ملامحه	٢٣
مقدمة	٢٣
نشأة التيار الديني	٢٤
بعض ملامح هذا التيار	٢٥
التيار العلمي ، نشأته وبعض ملامحه	٣٨
مقدمة	٣٨
مظاهر الوعي الاصلاحي	٤٢

في الثورة والامة والدولة والحزب والاشتراكية ٥٥

مقدمة ٥٥

الثورة ٥٦

النشوء والثورة ٥٩

الاساليب والوسائل ٦٥

استعداد الأمة ٦٩

التضامن ٧١

الامة ٧٣

الوحدة الاسلامية بين الافغاني وعبده ٨١

الدين والقومية ٨٢

الدولة والاستبداد والديمقراطية ٨٣

الاستبداد والدولة ٨٣

الاستغلال ٨٦

الثوري والنظام الديمقراطي ٨٦

ارادة الامة ٨٨

فصل الدين عن الدولة ٩٠

الحزب ٩٣

الاشتراكية والديمقراطية ٩٧

نقد الاشتراكية ١٠١

من التناقضات الاساسية في حركة النهضة ١٠٣

النشوء والثورة ١٠٣

الاسلام ، الشرق ، العروبة ١٠٦

الدعوة الاسلامية والفكر المادي ١١٦
مظاهر الماديين ١١٨
مقاصد الماديين ١١٨
اساليبهم وآثارهم ١١٩
الحضارة الغربية في البلاد العربية ١٢٣
نظرات في المرأة ١٢٧
حركات الاصلاح في الامبراطورية العثمانية ١٣٥
الدستور والردة ١٤٠
الدعوة للعروبة ١٤٤
مراحل النضال العربي ١٤٧
من كلمات الريحاني القومية والثورية ١٥٠
الحركة العربية والخلافة ١٥٣
المنظمات والعمل القومي المنظم ١٥٦
العمل على المستوى العثماني ١٦٠
المؤتمر العربي الأول ١٦٣
فكرة المؤتمر ١٦٧
جلسات المؤتمر والوفود المشتركة فيه ١٦٩
ملاحظات حول المؤتمر ١٧٤
قرارات المؤتمر وموقف جماعة الاتحاد والترقي ١٧٦
مقدمات الثورة العربية الاولى ١٧٩
قائد الثورة العربية الاولى ١٨٤
منشور الثورة ١٨٥

الاستقلال والحركة الاصلاحية ١٨٧
الجامعة الاسلامية والخلافة بعد الدستور ١٩٠
من آراء رجال الدين ١٩٣
لمن تكون الخلافة ١٩٥
الفكر الاشتراكي بعد الحرب العالمية الاولى ١٩٨
اشتراكية نقولا حداد ٢٠٠
النظام الاشتراكي والحرية ٢٠٢
النظام الاشتراكي والارث ٢٠٤
التدرج في تطبيق النظام الاشتراكي ٢٠٤
تناقضات هذا التفكير الاشتراكي ٢٠٥
الاشتراكية والشيوعية ٢٠٦
الشعر في عهد الثورة ٢٠٨
مقدمة ٢٠٨
الشعر في مراحل تطوره السياسي ٢١٠
المرحلة الاولى ٢١١
بعد الحرب العظمى الاولى ٢٢٩
الشعر والطائفية ٢٣٤
الشعر والاصلاح والمدنية ٢٣٨
ملاحظات عامة ٢٤٣

دار الطليعة للطباعة والنشر

الحزب الشيوعي الفرنسي وقضية الجزائر

بقلم: الياس مرقص

الحزب الشيوعي الفرنسي

ضد استقلال الجزائر
ضد حرية تقرير المصير
ضد عروبة الجزائر

مع ديغول
مع اليمين
مع الاستعمار

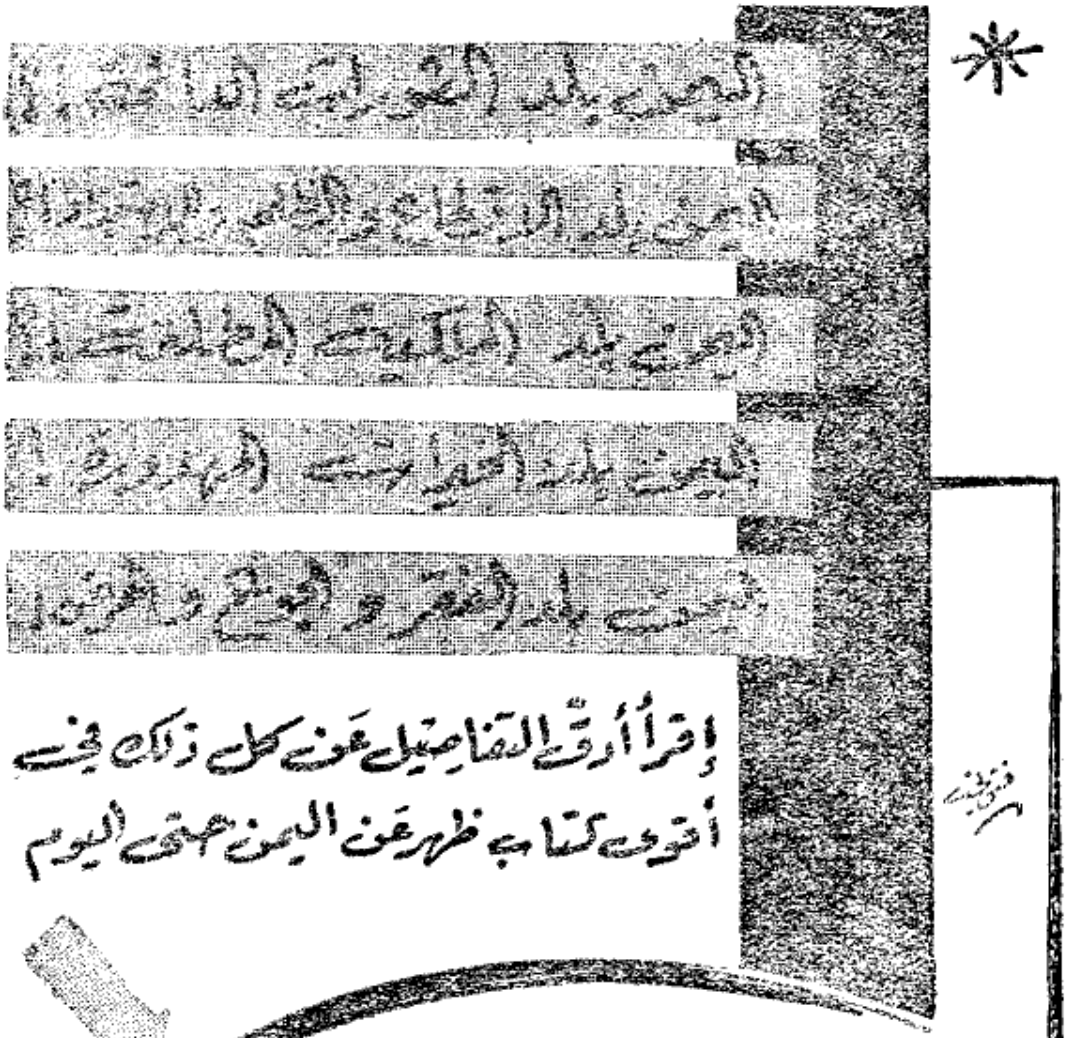

إقرأ أدق التفاصيل عن كل ذلك في
أروع كتاب ظهر عن اليمن حتى اليوم

كنت طبيبة في اليمن

وضعته الطبيبة الفرنسية
كلوديا فايان

ترجمه
محسن العيني

واصدته : دار الطليعة
تلفون : ٥٧١٧٨
ص.ب : ١٨١٣

٣٥٠
قرشا

هذا الكتاب

* هو القسم الأول من محاولة في دراسة الفكر القومي منذ بدء النهضة حتى الآن .

* وهو يبحث تطور الفكر الاجتماعي والسياسي دون التطورات السياسية والاجتماعية ، وان كان البحث يبدأ من فهم هذه التطورات وفهم أثرها في الفكر عامة .

* لأن هذا الكتاب جزء من دراسة طويلة تتناول الفكر الثوري في الوطن العربي منذ بدء النهضة العربية الحديثة حتى الآن فقد سمي « الثوري العربي المعاصر » .

* هذا الكتاب ضروري لكل مثقف يريد تعميق معرفته حول جذور الفكر الاجتماعي والسياسي الراهن في الوطن العربي .

منشورات : دار الطليعة - بيروت

الثمن ٣٠٠ ق.ل.

تطلب كتب دار الطليعة في العراق من مكتبة المثنى - بغداد